الفصل الثاني

العلـــوم الإســـــلاميـة

- العلوم عند العرب قبل الإسلام.

- العلوم عند الأمم الأخرى غير العرب قبل الإسلام.

- أهم العوامل التي ساعدت على تطور العلوم والتدوين عند العرب بعد الإسلام.

أولاً: القرآن الكريم يدعو إلى العلم والبحث والتفكر وإمعان النظر.

ثانياً: الحديث الشريف.

ثالثاً: الفتوحات الإسلامية.

رابعاً: اهتمام الخلفاء بالعلم والتدوين والتأليف.

خامساً: صناعة الورق.

سادساً: انتشار المدارس والمكتبات في المدن الإسلامية.

- العلوم الإسلامية النقلية:-

التفسير - الحديث - الفقه - اللغة العربية (الأدب العربي + النحو) - التاريخ.

- العلوم الإسلامية العقلية:

الطب - الرياضيات - علم الفلك - علم الطبيعة - الكيمياء - الصيدلة - الرحلات التجارية والجغرافيا - علم النبات.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

العلـــوم الإســـلاميـة

- العلوم عند العرب قبل الإسلام:

عاش معظم العرب في الجزيرة العربية حياة غير مستقرة تقوم على التنقل بسبب اعتمادهم على الرعي في أغلب الأحيان، علاوة على شبه العزلة عن العالم الخارجي التي كانوا يعيشونها؛ لذا لم يكن عندهم اهتمام بالعلوم والتدوين، وقد عولوا على ذاكرتهم القوية في حفظ الأنساب والأشعار والتراث، يتداولونها فيما بينهم لنقلها إلى الأجيال القادمة بشكل شفوي.

إلا أن هذا الأمر لا ينسحب على عامة العرب، فقد كان بعضهم يقرأ ويكتب ويدون، وخاصةً في مدن الطائف ومكة ويثرب ومدن جنوب الجزيرة العربية[1]. وقد امتاز العرب بفصاحة اللسان وقوة الذاكرة، وكان لديهم ثروة هائلة من مفردات اللغة العربية وردت في قصائدهم الشعرية والحكم والأمثال والخطب، كما توفرت لديهم لهجات متعددة منها لهجة تميم وقضاعة وهذيل وطيء وعامر وقيس وربيعة ومضر.

وكانت أقوى هذه اللهجات وأكثرها انتشاراً لهجة مضر (قريش) بسبب ما كانت تنفرد به هذه القبيلة من الزعامة على سائر القبائل، فهي المسؤولة عن أمن

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ص١٤.

مكة وتجارتها، وهي التي تنظم الحج والزيارة وتقدم الخدمات للقادمين إلى مكة، وهي التي تنظم الأسواق السنوية قرب مكة كسوق عكاظ وذي المجنة وذي المجاز[١].

وكان الشعراء بفطرتهم ونقاء ذاكرتهم قادرين على حفظ العادات والتقاليد والحروب والأنساب وغير ذلك من رثاء ومدح ووصف في قصائدهم الطويلة.

ولم تقلّ الحكم والأمثال أهمية عن الشعر عند العرب؛ لما فيها من قدرة على التعبير عن التجارب وتصوير الحوادث[٢]، كما عرف العرب الكهانة بمعرفة أخبار الماضين أو التنبؤ بما هو آت، وكثيراً ما كان العرب يلجؤون إلى الكهان لاستطلاع آرائهم أو استشارتهم فيما يفعلون[٣].

كما عرفوا القيافة بالاستدلال على النسب من ملامح الوجه، أو تتبع الأثر للوصول إلى أماكن معينة، وعرفوا مواعيد هبوب الرياح والأمطار وحركة النجوم بسبب الحاجة إليها في أسفارهم وتنقلهم داخل الجزيرة العربية، كما عرفوا شيئاً من الطب الذي يعتمد على التجربة مثل: الكي والحجامة وتجبير الكسور[٤].

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج١/ ٢٢٧.
ابن عبدربه الأندلسي، العقد الفريد ج١/ ١٣٥.
السيوطي، المزهر ج١/ ١٠٤.
(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام ٤٣-٤٨.
(٣) محمد ماهر حمادة، الكتاب العربي/ ٢١.
(٤) أحمد أمين، فجر الإسلام/ ٤١-٤٩.

ـ العلوم عند الأمم الأخرى غير العرب قبل الإسلام:

توارثت الأمم التي تعاقبت على المناطق المجاورة للجزيرة العربية العلوم من السابقين ونقلتها إلى اللاحقين، ومن هذه الأمم المجاورة: الإغريق، الفرس، الروم، السومريون، الآشوريون، البابليون، الفينيقيون، الأنباط، وفيما يبدو أن أقوى العلوم المكتوبة قد وصلتنا عن الإغريق (اليونان)، حيث تعرفنا على علمائهم من خلال نظرياتهم العلمية مثل: أرسطو طاليس، أبقراط، فيثاغورس، سقراط، أفلاطون، جاليونس.

وتقول الروايات التاريخية: إن أول أكاديمية علمية لتدريس العلوم، أسسها أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد في أثينا، ثم جاء من بعده تلميذه أرسطو فأسس أكاديمية مشابهة لأكاديمية أفلاطون أطلق عليها الليسيوم، وكان أساتذة العلوم الطبيعية يتعاقبون بعلومهم وراء بعضهم البعض طوال القرون الأربعة قبل الميلاد والقرون التالية بعده.

وقد كتب لهذه العلوم التي ظهرت في بلاد الإغريق أن تنتقل إلى مصر من خلال حملة الإسكندر المقدوني الذي خرج بحملته لغزو بلاد الشرق، فاجتاحت قواته بلاد فارس والعراق والشام ومصر حيث وافته المنية أثناءها بعد تأسيس مدينة الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد (٣٢٣ق. م).

وفي الإسكندرية بمصر استقر علماء الإغريق الذين قدموا مع تلك الحملة وأسسوا أكاديمية الإسكندرية، فامتلأت هذ الأكاديمية بالكتب الإغريقية؛ مما جعل اسم المكتبة يغلب على اسم المدينة.

وقد تأسست هذه المكتبة في أوائل القرن الثالث ق. م في عهد بطليموس الأول، ولم تكن مجرد مكتبة فحسب بل كانت بمثابة جامعة قام بالتدريس فيها مجموعة من علماء اليونان مثل: سترابون الإغريقي، أرخميدس، هيرون، وجمعوا لها نفائس الكتب من بلدان كثيرة حتى وصل مجموع كتبها إلى ما بين ٥٠٠,٠٠٠-٧٠٠,٠٠٠ كتاب.

وقد تعرضت هذه المكتبة قبل التاريخ وبعده إلى الحريق عدة مرات بسبب الخلافات المذهبية النصرانية، وبسبب ثورة قام بها أهل الإسكندرية على حاكمهم القيصر الروماني، أو كما قيل: إن القيصر هو الذي حرقها بنفسه لينجو من الثائرين عليه في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد (٤٧ ق. م).

ثم عادت لهذه المكتبه مكانتها بعد الميلاد، في عهد أنطونيوس الذي تلا قيصر في الحكم، ولكنها امتلأت بالكتب الوثنية بعد ذلك إلى أن جاء الإمبراطور تادوسيس (٣٧٨-٣٩٥م)، وكان متعصباً للنصرانية، فأمر بحرق مكتبة الإسكندرية وكان يطلق عليها في عهده (سترابيس)، ثم أعاد تأسيسها من جديد لما يوافق عقيدته وهواه، واستمرت هذه المكتبة إلى عهد المقوقس حاكم مصر، فأمر بحرق المكتبة حتى لا يستفيد منها الفاتحون المسلمون.

وفي الفترة التي وقعت فيها الخلافات المذهبية بين النصارى والاضطهاد الديني الذي تعرض له فلاسفة النصارى في أوائل القرن السادس الميلادي هاجر علماء الإسكندرية من الإغريق إلى البلدان المجاورة، وأسسوا فيها مكتبات ومدارس علمية وجلسوا فيها للتدريس، ومن هذه المدارس العلمية:

١- مدرسة أنطاكية[١]، التي ازدهرت فيها علوم الرومان لقربها منهم وسهولة إحضار الكتب إليها، فأصبحت بعد ذلك حلقة الوصل في ترجمة كتبها إلى اللغة العربية بعد الإسلام.

٢- مدرسة حران[٢]، وتأتي بعد مدرسة أنطاكية في أهميتها العلمية، حيث ترجمة كتبها إلى اللغة العربية بعد الإسلام وكان فيها كتب من علوم سريانية وإغريقية.

٣- مدرسة جند يسابور في بلاد فارس، أسسها كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٨م)، وقد راجت فيها العلوم الفارسية والإغريقية والهندية، وكان معظم أساتذتها من النصارى النساطرة، ومن أشهر علمائها جورجيس بن جبرائيل ابن بختيشوع الذي انتقل إلى بغداد لمعالجة الخليفة العباسي المنصور[٣].

٤- مدرسة نصيبين[٤]، وكانت على علاقات طيبة مع مدرسة الرها بجوارها، وعملت معها على نشر الثقافة اليونانية والبيزنطية.

٥- مدرسة الرها[٥]، وهي ذات علوم دينية نصرانية، وامتزجت فيها العلوم البيزنطية واليونانية.

---

(١) تقع أنطاكية على ساحل البحر المتوسط شمال حلب، كانت تتبع دولة الروم قبل أن يفتتحها المسلمون على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح سنة ١٧هـ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) حران. تقع في شمال الشام على الطريق بين الموصل وحلب.

(٣) جوستاف لوبون، حضارة العرب/ ٤٦٠.

(٤) من أشهر مدن الجزيرة الفراتية.

(٥) إحدى مدن الجزيرة الفراتيه بجوار مدينة نصيبين.

أهم العوامل التي ساعدت على تطور العلوم والتدوين عند العرب بعد الإسلام:

أولاً: القرآن الكريم يدعو إلى العلم والبحث والتفكر وإمعان النظر:

مر معنا سابقاً أن العرب لم يكن لديهم اهتمام بشؤون القراءة والكتابة إلا في القليل النادر بما عثر عليه من نقوش جنوب الجزيرة العربية وعلى طريق القوافل التجارية تجاه بلاد الشام ونواحيها[1]. أما بعد مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم فقد تغير الأمر كثيراً بالنسبة إلى العرب، حيث انقلب أمرهم بشكل جذري في كافة الشؤون السياسية والعسكرية والاجتماعية والدينية والعلمية، فأصبحوا هم قادة هذه الميادين لا في الجزيرة العربية فحسب وإنما خارجها أيضاً بعد الفتوحات التي شهدتها البلدان المجاورة وانتشار الإسلام فيها على يد العرب.

وفي فجر الإسلام على عهد الرسول ﷺ أقبل الصحابة على التعليم استجابة للمتطلبات الجديدة التي يدعو إليها القرآن الكريم في كثير من الآيات في بيان فضل العلم والعلماء وضرورة القراءة والكتابة؛ ليفهم الناس أحكام الدين وتلاوة القرآن الكريم وحفظه وتدوينه أولاً بأول، حيث كان الرسول ﷺ يحفظه عن الوحي، ثم ينقله إلى أصحابه فيحفظونه في ذاكرتهم ويدونونه على الرقاق، وكان هؤلاء المدونون من الحرص الشديد على حفظه مكتوباً زيادة على الحرص في حفظه في الذاكره، وكان يطلق على هؤلاء المدونين كتبة الوحي، ويزيد عددهم عن أربعين صحابياً[2].

---

(١) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام ج٧/ ٥٦.

(٢) انظر التفاصيل عن كتبة الوحي: الجهشياري، الوزراء والكتاب/ ١٢. ابن عبد ربه، العقد الفريد ج٤/ ١٦١. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج١٣/ ٣٥٣.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحمل معنى التدوين أو الدعوة إلى العلم أو تفضيل العلماء على غيرهم منها قوله تعالى: ﴿ومن النَّاسِ والدوابِ والأنْعَامِ مُخْتَلِفٌ ألوانُهُ كَذَلِكَ إنمَا يَخْشَى اللهَ منْ عِبَادِهِ العُلَماءُ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ إقرأ وربُّكَ الأكرَمُ الذي عَلمَ بالقلَمِ، عَلمَ الإنسانَ مالم يَعْلَمُ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطُرُونَ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿أمّن هو قانتٌ آنَاءَ الليلِ ساجداً وقائماً يَحذَرُ الآخرةَ ويَرْجُوا رَحْمَةَ ربهِ، قُلْ هلْ يستَوِي الذينَ يعْلَمونَ والذين لا يعلَمونَ إنما يَتَذكرُ أولُوا الألْبَابِ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أرسَلْنَا قَبْلَكَ إلا رِجَالاً نُوحِي إليهِم فاسألُوا أهْلَ الذِكْرِ إنْ كنتم لا تعلَمُون﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا إذَا قِيلَ لكُم تفسَّحُوا في المجَالسِ فافسَحُوا يفسحِ اللهُ لكم،وإذَا قِيلَ انشُزُوا فانشُزُوا يرفَعِ اللهُ الذين آمنوا منكُم والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ والله بما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ﴾(٦).

وقد خاطب القرآن الكريم عقول الناس وحث على تقصي الحقائق والبحث في أصولها قبل الحكم عليها بالإيجاب أو السلب، وحث على الاستقراء لإزالة

(١) سورة فاطر/ ٢٨.
(٢) سورة العلق/ ١-٥.
(٣) سورة القلم/ ١.
(٤) سورة الزمر/ ٩.
(٥) سورة الأنبياء/ ٧.
(٦) سورة المجادلة/ ١١.

الخرافات والشبهات، كما أطلق القرآن الكريم حرية التفكير والإبداع والبعد عن التقليد الأعمى بالدليل القاطع.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة نورد أمثلة منها كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُها الذينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُم فاسقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُم نَادِمِين﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ومن آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمَرُ، لا تَسجُدُوا للشمسِ وَلا للقَمَرِ، واسجُدُوا للهِ الذي خَلَقَهُنَ إِنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعبُدُون﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إِلىَ ربكَ كيفَ مَدَّ الظلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجعلَه سَاكِناً ثم جَعَلْنَا الشمسَ عليهِ دَليلاً﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿والذِينَ إِذا ذُكِرُوا بآياتِ ربهم لمْ يَخِروا عَلَيها صُماً وَعُمياناً﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الليلَ والنهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ وَجَعَلْنا آيةَ النهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضلاً من ربكم، ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنينَ والحسابِ، وكلَّ شيءٍ فصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ في اختلافِ الليلِ والنهارِ وما خَلَقَ اللهُ في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَتَقُون﴾(٦).

---

(١) سورة الحجرات/ الآية٦.
(٢) سورة فصلت/ الآية ٣٧.
(٣) سورة الفرقان/ الآية٤٥.
(٤) سورة الفرقان / الآية٧٣.
(٥) سورة الإسراء/ ١٢.
(٦) سورة يونس/ ٦.

وقال تعالى: ﴿فلينظرِ الإنسانُ مم خُلِقَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إن شرَّ الدوابِ عندَ اللهِ الصمُّ البكمُ الذينَ لا يَعْقِلُون﴾[2].

وقولُه تعالى: ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ، إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مَسئُولاً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿واللهُ أخْرَجَكُم من بطونِ أمَهاتِكم لا تعلمونَ شيئاً وَجَعَل لكُمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لَعَلكُم تَشْكُرون﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿أفَلا يَنْظُرون إلى الإبلِ كيفَ خُلِقَت وإلى السماءِ كيفَ رُفِعَت وإلى الجبالِ كيفَ نُصِبَت، وإلى الأرضِ كيف سُطِحَت﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿أفَلَم يَنْظُرُوا إلىَ السماءِ فَوقهُم كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنَاها وما لها من فُرُوجٍ﴾[6].

وقد أكد القرآن الكريم على الحجة البالغة والبرهان القاطع لفهم الأشياء فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ معَ اللهِ إلَهاً آخرَ لا بُرْهَانَ لَهُ فإنَما حِسَابُه عند ربه إنّه لا يُفْلح الكَافِرُون﴾[7].

وقوله تعالى: ﴿وتلكَ حُجتُنَا آتيْنَاهَا إبراهيمَ على قومِه﴾[8].

---

(١) الطارق/ ٥.
(٢) سورة الأنفال/ ٢٢.
(٣) سورة الإسراء/ ٣٦.
(٤) سورة النحل/ ٧٨.
(٥) سورة الغاشية/ ١٧-٢٠
(٦) سورة ق/ ٦.
(٧) سورة المؤمنون/ ١١٧.
(٨) سورة الأنعام/ ٨٣.

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلهِ الحجةُ البَالِغةُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلا من كانَ هُوداً أوْ نَصَارى تلكَ أمَانِيُّهُم قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كُنْتُم صَادِقِين﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إنَ الذينَ يُجَادِلوُن في آياتِ اللهِ بغيرِ سلطانٍ أتَاهُم، إنْ في صُدُورِهم إلاَّ كِبْرٌ مَاهُم بِبَالِغيه فَاستَعِذْ باللهِ إنَّهُ هُوَ السميع البَصِيرُ﴾[3].

ولهذا فإن علماء المسلمين أمام هذه الآيات الكريمة الواضحة البينة لم يسعهم إلا أن يسيروا على منهجها للوصول إلى الحقائق الصحيحة التي تقوم على الصدق والأمانة والإخلاص والموضوعية ونقد الأشياء وإجراء التجارب وطلب البراهين والأدلة وتحكيم العقل والاستقراء بعيداً عن التقليد الأعمى والاستسلام، فخاض علماء المسلمين غمار العلوم وميادينها الواسعة فأصبحوا خلال عقود قليلة سادة العالم في جميع المجالات العلمية.

يقول ابن تيمية: «إن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين».

ويقول جابر بن حيان: «إن المعرفة لا تحصل إلا بالعمل وإجراء التجارب» ويقول ابن النفيس: «إن قوة الملاحظة والتجربة والدراسة العلمية العقلية النزيهة هي أساس البحث العلمي والحقائق السليمة».

ويقول ابن النديم في كتابه الفهرست: «النفوس تشرئب إلى النتائج دون المقدمات وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات».

---

(١) سورة الأنعام/ الآية ١٤٩.
(٢) سورة البقرة/ ١١١.
(٣) سورة غافر/ ٥٦.

وهذا هو المنهج الذي سار عليه علماء الحديث في القرن الثاني الهجري لتنقية أحاديث الرسول ﷺ، ومارس عليه ابن الهيثم تجاربه في علم الضوء، ومارس عليه الرازي في علم الطب، ومارس عليه ابن البيطار في علم النبات والخوارزمي في علم الحساب والجبر وغيرهم مما لا مجال لحصره عند الكثير من علماء المسلمين، وهذا ما شهد به علماء الغرب والمستشرقون فتقول زيغريدهونكه:

«لم يأخذ العرب العلوم التي ورثوها عن طريق الاقتباس، كما أنهم لم يأخذوا الآلات العلمية ومواد العلم القريب دون مناقشة أو تحقيق، فمنذ البدء أدهشوا العالم بالحرية الموضوعية والشجاعة العلمية اللذين استقبلوا بهما نتائج السالفين وأقوالهم ليشبعوها بحثاً ونقداً وتفنيداً وتحقيقاً للأخطاء ودحضها وعملاً دائباً في الحقل الجديد دون أن تغشى بصرهم غاشية صيت ذائع، ومن غير أن يدخل الوجل إلى قلبهم اسماً كبيراً فيرهبهم، ولعل أبلغ برهان على هذه الصفة التي كانت تقضي بألا يؤمنوا حقاً وصواباً إلا بالأشياء التي تثبت صحتها التجارب وتدعمها، نقول لعل أبلغ برهان على هذا ما نراه من عناوين المخطوطات التي كانت تسعى إلى نقد كتب أرسطو العظيم نفسه أو بطليموس»[1].

ويقول بريفولت: «إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية في جامعة أكسفورد على تلاميذ أساتذته العرب في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا للذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليه ابتكار المنهج التجريبي، إذ لم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج التجريبي الإسلاميين إلى أوربا المسيحية»[2].

(١) زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب/ ١٤٣.
(٢) زكريا هاشم، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم/ ٥٠٣.

ثم أليسَ من حقنا بعد هذا كله أن نقول كلمة بأن هذا هو الحق في رعاية الإسلام للعلم والبحث العلمي والتطور إلى الأمام، ثم من حقنا بعد هذا كله أن نستهجن ونستنكر ما يشاع عن الإسلام بأنه يدعو إلى التقوقع والثبات على ما ألفينا عليه آباءَنا حتى ولو كان آباؤنا لا يفقهون شيئاً ولا يهتدون، أو أن الإسلام يدمر الحضارات كما يقول أحد المؤرخين المستشرقين[1]. والحق أن الحضارة كلها التي انتقلت عن العرب إلى الغرب قد قامت على أساس الإسلام ومن صنع المسلمين أنفسهم.

ثانياً: الحديث الشريف:

بالرغم من أن الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، إلا أنه دعا أصحابه إلى تعلم القراءة والكتابه لأهميتهما في الإسلام، وقد ثبت عنه أنه سمح بإطلاق أسرى بدر من قريش مقابل تعليم كل واحد منهم لعشرة من صبيان المدينة[2]، كما استخدم الرسول ﷺ من أصحابه كتبة يكتبون رسائله إلى حكام عصره لدعوتهم إلى الإسلام[3]، وأمر الرسول بكتابة الوثيقة (الصحيفة) التي نظمت حياة الناس في المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها من مكة، وهي الوثيقة التي تعد بمثابة الدستور الذي يلزم الناس على نظام معين[4]، أهمها أن تكون مرجعية الناس كلهم في المدينة إلى الرسول ﷺ، كما سمح لأصحابه أن يتعلموا لغات أخرى غير العربية كالقبطية والفارسية والسريانية[5].

---

(1) Arthur Gold Schmidt.
Aconcise History of the middle east./p15.

(٢) ابن سعد، الطبقات ج٢ ق١/ ١٤.

(٣) محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٤٥.

(٤) راجع الوثيقة ، محمد حميدالله، الوثائق الساسية / ص٥٧.

(٥) ابن عبدربه، العقد الفريد ج٢/ ١٤٤.
ابن الأثير، أسد الغابة ج٢/ ١٢٦.

ومما ورد عنه ﷺ في طلب العلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1]، «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2]. «العلماء ورثة الأنبياء»[3] «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينه وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[4]، «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»[5]، «العالم والمتعلم شريكان في الخير»[6].

وفي بداية الإسلام كان الرسول ﷺ ينهى أصحابه عن تدوين أحاديثة خوفاً من الاختلاط بالقرآن الكريم[7] إلا أنه سمح بعد ذلك حين انتشر الإسلام وكثر الحفاظ والمتعلمون، وأمن الرسول ﷺ من الخلط بين أحاديثه والقرآن الكريم، فكان كثير من الصحابة يدونون خلف الرسول ﷺ لتبليغ ما يقول[8] منهم سعد ابن عبادة الأنصاري (ت ١٥ هـ) سمرة بن جندب (ت ٦٠هـ)، جابر بن عبدالله (ت ٧٨هـ) عبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ)، أبو هريرة (ت ٥٩هـ) عبدالله بن عباس (ت٦٩هـ).

---

(١) رواه الإمام أحمد بمسنده ج١٢/ ١٨٠.
(٢) سنن ابن ماجه ج١/ ٥.
(٣) نور الدين الهيثمي، مجمع الزوائد ج١/ ١٢١.
(٤) مسند الإمام أحمد ج١٣/ ١٦١.
(٥) نور الدين الهيثمي، مجمع الزوائد ج١/ ١٢٧.
(٦) ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله ج١/ ٢٨.
(٧) الخطابي، معالم السنن ج٤/ ١٨٤.
(٨) الحافظ ابن حجر، فتح الباري ج١/ ١٨٥.
محمد صبحي الصالح، علوم الحديث/ ٣٣-٣٩.

وفي القرن الأول الهجري كان الصحابة والتابعون يتداولون أحاديث الرسول ﷺ مشافهة مع الحرص الشديد على الدقة في الرواية خوفاً من الزيادة أو النقصان، وخوفاً من الانشغال عن كتاب الله[1].

ثم ظهرت الفرق الإسلامية وكثر التقول على لسان الرسول ﷺ بقصد أو عن جهل لأغراض وأهداف مختلفة، فانبرى للحديث الشريف جماعة من المهتمين به؛ فطافوا البلدان للتحري والبحث والتنقيب والجمع لكل ما قيل عن الرسول ﷺ، وقد وضع هؤلاء المحدثون نظاماً صارماً لقبول الروايات وبيان الصحيح منها من غير الصحيح، ورحلوا في البلاد لهذا الغرض، وتحملوا المشاق الصعبة لخدمة أحاديث رسول ﷺ[2].

ونتيجة لهذه الجهود ظهر علم الجرح والتعديل وعلم الإسناد وعلم مصطلح الحديث، وظهرت أنواع الأحاديث بحسب أسانيدها ومتونها، وظهرت بجانب ذلك أهمية السيرة النبوية وغزوات الرسول ﷺ والدعوة بمكة والمدينة وأعمال الصحابة وتضحياتهم وأنسابهم؛ مما أدى إلى التوسع في تدوين السيرة على نطاق واسع، سوف نأتي إليه بالتفصيل لاحقاً.

ثالثاً: الفتوحات الإسلامية:

حيث اتسعت دولة الإسلام ودخل الأعاجم في دين الله وانتشرت اللغة العربية بينهم، واطلع العرب على ما عند الأمم الأخرى من علوم فترجمت إلى

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٣ ق١/ ٢٠٦.
الخطيب البغدادي، تقييدالعلم/ ٥٠.
ابن عبدالبر، جامع بيان العلم وفضله ج١/ ٩٤.
(٢) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي ج٩/ ١٦٩.
الذهبي، تذكرة الحفاظ ج٢/ ٢٣٨.

اللغة العربية، واتسعت النظم الإسلامية على اختلاف أنواعها، ودونت الدواوين وأصبح الاعتماد على الذاكرة أمراً مستحيلاً بعد احتكاك المسلمين بغيرهم من أهل الثقافات المختلفة[1].

رابعاً: اهتمام الخلفاء بالعلم والتدوين والتأليف:

فقد أنفقوا عليها بسخاء، وكثر النساخ وخاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف والعلوم الأخرى التي تخدمهما كالفقه والتفسير، وكثر المتعلمون، وانتشرت المدارس بجانب المساجد، واستدعى الخلفاءُ العلماءَ وكلفوهم بكتابة العلوم المختلفة، وظهرت طبقات مختلفة من الإخباريين والنسابين والمحدثين والمؤرخين، واتسعت العلوم النقلية والعقلية على نطاق واسع سنأتي إليها في الحديث عن العلوم الإسلامية.

خامساً: صناعة الورق:

انتشر بين العامة والخاصة من المسلمين وخاصة في العصر العباسي الأول بعد أن تعلم العرب صناعته عن أهل خراسان[2] مما شجع العلماء على أن يتخذوا لهم كتبة يكتبون لهم مؤلفاتهم بالأجرة، وهؤلاء هم الوراقون الذين كانوا يجلسون في الأسواق يكتبون بالأجر إلى الناس[3]، ثم تطور عمل النساخ إلى تجليد ما يكتبون وزخرفة وتذهيب نسخهم، وهي التي أطلق عليها المخطوطات الإسلامية التي ملأت المكتبات والمساجد والبيوت بما يعد نهضة علمية لا سابقة لها في تاريخ الشعوب.

---

(١) الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب/ ١٢٣.

(٢) ابن النديم، الفهرست/ ٣٢.

(٣) السمعاني، الأنساب / ٥٧٩.
اليعقوبي، البلدان/ ٢٤٥.
ابن خلكان، وفيات الأعيان ج١/ ١٧٧.

سادساً: انتشار المدارس والمكتبات في المدن الإسلامية:

اتخذ المسلمون من المساجد في بداية أمرهم أماكن يتداولون فيها القراءة والكتابة بعد أداء صلواتهم، ويحفظون آيات القرآن الكريم، ثم انتشرت الحلقات العلمية في المساجد على نطاق أوسع ابتداءً من مسجد الرسول ﷺ إلى مساجد البصرة والكوفة ودمشق وبيت المقدس والفسطاط والقيروان وقرطبة وبغداد وغير ذلك من المدن الإسلامية.

وقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعلمين من الصحابة إلى البلاد المفتوحة لتعليم الناس، فجلس هؤلاء الصحابة في المساجد، وتخرج على أيديهم العلماء، وانتشروا في العالم الإسلامي؛ فكانوا باكورة المدارس والجامعات بعد ذلك. فقد امتلأ مسجد عمرو بن العاص بمصر بالحلقات العلمية في مختلف العلوم، وكان للإمام الشافعي حلقات علمية فيه وتخرج على يديه مئات العلماء والفقهاء. كما جلس العلماء بمسجد عقبة بن نافع في القيروان منذ أن أكمل بناءَه سنة ٥٥هـ، ومسجد حسان بن النعمان بتونس الذي أكمل بناءَه سنة ٧٩هـ ثم تحول إلى جامعة بعد ذلك أطلق عليه جامعة الزيتونة[١].

ثم اكتمل الفتح الإسلامي للمغرب على يد القائد موسى بن نصير، فبنى المساجد في المغربين الأوسط والأقصى، وأقبل البربر على الدخول في الإسلام، وجلسوا في المساجد لتلاوة القرآن الكريم وحفظه وتعلم اللغة العربية وأحكام الدين.

وكان الخلفاء يعتبرون أنفسهم حماة للعلم، ففتحوا قصورهم للعلماء، وأوسعوا لهم في مجالسهم، وبنوا لهم حجرات سكنية بجوار المساجد، وأجروا

(١) محمد الباجي بن مامي. جامع الزيتونة. مجلة التاريخ العربي/ ص١٧٠-١٧٥.

عليهم الأرزاق، وكان عصر الرشيد وأبنائه وخاصة الخليفة المأمون أزهى العصور العلمية الإسلامية. ولم يقتصر هذا المجال على العباسيين، بل امتد إلى السلاجقة والفاطميين والأيوبيين والمماليك. فقد أنشأ نظام الملك الطوسي وزير السلاجقة في عهد السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه، أنشأ المدارس السلجوقية بجانب المساجد أطلق عليها المدارس النظامية في جميع البلاد التي سيطر عليها السلاجقة ابتداء من بلاد ما وراء النهر إلى خراسان والعراق وبلاد الشام[1].

وفي بغداد بنى الخليفة المستنصر بالله المدرسة المستنصرية سنة ٦٢٥هـ، لتعليم العلوم المختلفة وفي القاهرة بنى الفاطميون جامع الأزهر سنة ٣٦٢هـ للتعليم وتخريج الدُعاة على مذهبهم لخدمة مبادئهم وطموحاتهم لتوسيع الدولة الفاطمية إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي، ثم تحولت جامعة الأزهر في العصر الأيوبي بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ، تحولت إلى جامعة إسلامية لخدمة الإسلام والمسلمين في مختلف أنواع العلوم.

ولم تقتصر الدراسة في هذه المساجد أو الجامعات الملحقة بها على العلوم الدينية، بل امتدت إلى العلوم الطبيعية الأخرى كالطب والرياضيات والجغرافيا والفلك كما هو الحال في المدارس التي أنشأها نور الدين زنكي بدمشق وحلب وأطلق عليها المدارس العصرونية، والمدارس الزجاجية التي أنشأها بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن أرتق بحلب.

وبجانب هذه المدارس الإسلامية انتشرت المكتبات في عدد كبير من المدن الإسلامية في نواحي خراسان والعراق وبلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس.

---

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون ج١/ ٢٢.
ياقوت الحموي. معجم الأدباء ج١٧/ ٢٣٧.

وقد ساهمت هذه المكتبات في تطور التدوين والتأليف والترجمة، ولم تكن هذه المكتبات مجرد خزائن مكتبية فقط، وإنما كانت تضم حلقات علمية وجامعات يؤمها القاصي والداني لإشباع رغباتهم العلمية[١]، ومن أوائل هذه المكتبات الإسلامية مكتبة خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (ت ٨٥هـ) بدمشق[٢]، وأسس الخليفة عمر بن عبدالعزيز مكتبة علمية بحران في شمال الشام وحشد إليها المؤلفين والمترجمين[٣].

وفي العصر العباسي الأول تطورت الكتابة والتأليف والترجمة، ولقيت عناية كبيرة من الخلفاء العباسيين، فأسس أبو جعفر المنصور مكتبة دار الحكمة ببغداد وهيأ لها النساخ والمترجمين وأغدق عليهم الأموال لتشجيعهم[٤].

وقد ازدهرت هذه المكتبة كثيراً في خلافة الرشيد وخلافة ابنه المأمون، حيث امتلأت بالمخطوطات والنساخ والمترجمين للكتب اليونانية والفارسية والهندية والرومانية[٥].

كما اهتم الفاطميون بمصر بالمكتبات وقلدوا العباسيين بحشد المترجمين والمؤلفين في مكتباتهم لخدمة مذهبهم الشيعي الذي أقاموا دولتهم على أساسه، ومن أهم هذه المكتبات مكتبة بيت الحكمة في القاهرة[٦] ومكتبة طرابلس الشام[٧].

---

(١) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام/ ٨٢.
(٢) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية ج١/ ١٦٥.
(٣) لطف الله القاري، بدايات الترجمة في العهد الأموي/ ٢٨٥- وما بعدها.
(٤) محمد مروان السبع، حركة الترجمة العلمية/ ١٨٩.
(٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢/ ١٤٤، ١٧٦.
سيد أمير علي، مختصر تاريخ المسلمين/ ٢٧٤.
(٦) المقريزي، خطط المقريزي ج١/ ٤٠٩.
(٧) البستاني، دائرة المعارف الإسلامية ج١١/ ٢٤٣.

وفي العصر السلجوقي اهتم سلاطينهم ووزراؤهم بالمكتبات فملؤوها بالمخطوطات النادره لخدمة دولتهم التي ربطوها بالخلافة العباسية على مذهب أهل السنة والجماعة[١].

وفي القيروان بالمغرب أسس الأغالبة مكتبة بيت الحكمة[٢]، وتباهى الأمويون في الأندلس بالمكتبات فجمعوا لها الكتب النادرة كما فعل العباسيون في المشرق الإسلامي، يقول المقري في وصف مكتبة قرطبة: «وهي من أكثر بلاد الأندلس كتباً وأشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم أداة التعيين والرياسة، حتى إن الرئيس عندهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن يكون في بيته خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قدحصله وظفر به»[٣].

وأسس السامانيون عندما أقاموا دولتهم بخراسان على المذهب الشيعي، أسسوا مكتبات لهم في بخارى[٤]، كما فعل البويهيون الشيء نفسه في مدن فارس في القرن الرابع الهجري[٥]، وأسس الحمدانيون مكتبات علمية لهم بحلب والموصل[٦].

كما انتشرت المكتبات الخاصة في البيوت وتباهى الناس باقتناء الكتب في مدن العراق وفارس وخراسان ومدن بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية والأندلس، وتحولت بيوت الأدباء والعلماء إلى نواد علمية يرتادها محبو العلم وتلامذتهم[٧].

---

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون ج١/ ٢٢.
(٢) صلاح الدين المنجد، قواعد فهرسة المخطوط/ ١٧.
(٣) نفح الطيب ج٢/ ١٠.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان ج١/ ٤٢٠.
(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم/ ٤٤٩.
(٦) أحمد أمين، ظهر الإسلام ج١/ ١٨٤.
(٧) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ج١٨// ٢٨١.
الكتبي، فوات الوفيات ج٢/ ١٩٣.
محمد ماهر حماده، المكتبات في الإسلام ١٢٨-١٢٩.

ـ العلوم الإسلامية النقلية:

أولاً: التفسير:

كان الوحي ينزل على الرسول ﷺ في أوقات متفرقة في فترة نبوته التي امتدت إلى ثلاث وعشرين سنة دعا فيها إلى الإسلام، فكان الوحي يتلو الآيات الكريمة على الرسول ﷺ فيحفظها منه باهتمام وحرص كبير خوفاً أن يضيع منه شيء، فنزلت آيات تطمئن الرسول ﷺ على أن الله متكفل بحفظ القرآن الكريم من الضياع، منها قوله تعالى: ﴿**لا تحرِكْ به لسَانَك لتعْجلَ به، إنَ عَلينَاجَمْعَهُ وقرءآنَهُ، فإذا قرأناهُ فاتبِعْ قرءَانَهُ ثُم إنَّ عَلينَا بَيانَه**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**فَتَعَالى اللهُ المَلكُ الحَق، ولا تَعجَلْ بالقُرءَانِ من قَبْلِ أنْ يُقْضَى إليك وَحْيُهُ، وقُلْ رب زدني عِلْماً**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**إنا نَحْنُ نَزلْنَا الذكرَ وإنا لَهُ لَحافظُون**﴾[3].

وبعدما كان الرسول ﷺ يحفظ الآيات عن الوحي كان ينقلها إلى أصحابه فيحفظونها في ذاكرتهم ويدونونها على الرقاق بين يدي الرسول ﷺ وهم الذين يطلق عليهم كتبة الوحي ومنهم: زيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان، أبيٌّ بن كعب الأنصاري الخزرجي، عبدالله بن مسعود، حتى قيل: إن عدد كتبة الوحي بلغ ما يقرب من أربعين صحابياً[4].

---

(١) سورة القيامة/ ١٦-٢٠.
(٢) سورة طه. الآية ١١٤.
(٣) سورة الحجر الآية٩.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج٤/ ١٦١.
القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج١٣/ ٣٥٣.
القلقشندي، صبح الأعشى ج٢١/ ٩٢.

وبعد وفاة الرسول ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ١١هـ، تولى الخلافة بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه فكثر القتل في الصحابة من حَفَظَة القرآن الكريم في محاربة المرتدين، فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الخليفة أبي بكر أن يجمع القرآن الكريم، فأمر الخليفةُ زيدَ بن ثابت فجمع الصحف ووضعت في بيت أبي بكر حتى توفاه الله سنة ١٣هـ، فنقلها الخليفة عمر بعده إلى بيت ابنته حفصة زوج النبي ﷺ.

وفي خلافة عثمان بن عفان (٢٤-٣٥هـ) اتسعت الفتوحات الإسلامية ودخل الأعاجم في دين الله وتعلموا اللغة العربية ليقرؤوا القرآن الكريم، إلا أن اللحن ظهر على ألسنتهم فقرؤوا الآيات على غير وجهها الصحيح، فأمر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه تدوين القرآن الكريم في نسخة واحدة، فاجتمع لذلك نفر من الصحابة لجمعه وهم: زيد بن ثابت، عبدالله بن الزبير، سعيد بن العاص، عبدالرحمن بن الحارث بن هشام القرشي المخزومي، فدوَّنوا سبعة مصاحف على قراءة واحدة وأرسلوها إلى البلدان، (اليمن، الشام، المدينة، مكة، البصرة، الكوفة، مصر) وانتشر بعد ذلك تدوين القرآن الكريم عن هذه النسخ السبعة حتى ملأت المصاحف عامة بلاد المسلمين.

وهذا القرآن الكريم الذي نزل بحروفه ولفظه من الله عز وجل بواسطة الوحي إلى الرسول ﷺ منجماً وحفظه الرسول عنه مشافهة، وحفظه الصحابة عن الرسول مشافهة وكتبوه في صحفهم، هذا القرآن المعجز كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**قُلْ لئن اجتَمعتِ الإنْسُ والجِنُ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرءانِ، لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً**﴾[1].

(١) سورة الإسراء/ الآية ٨٨.

وهذا التحدي للعرب ممن عرفوا بالفصاحة والبلاغة ونظم الشعر عجزوا عن الإتيان بشيء من مثله وهو بلغتهم كما قال تعالى: ﴿ **وما أرْسَلْنا من رسولٍ إلا بلسان قومِه لِيُبيِّنَ لهم، فيُضِلُ الله مَن يَشَاءُ ويهدي مَنْ يَشَاءُ وهو العَزيزُ الحَكيمُ** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **وكذلكَ أنْزَلْنَاهُ قرآناً عربياً، وصرفْنَا فيه من الوعيد لَعَلَّهُم يَتقُون أو يُحدِثُ لهم ذكْراً** ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ **إنا أنْزَلناه قرءاناً عَرَبياً لعلكم تَعْقِلون** ﴾[3].

وبالرغم من أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب إلا أن بعض معانيه لم تكن واضحة وتحتاج إلى تفسير، وجاء هذا التفسير على أنواع أهمها كما يلي:

١- **تفسير الآيات لبعضها البعض:** سواء جاء التفسير في الآية نفسها، أو في آية لاحقة لها بالسورة نفسها أو في آية أخرى في مكان آخر، وقد تكرر مثل هذا كثيراً في القرءآن الكريم، فما جاء مجملاً في موضع فُصل في موضع آخر، فلا بد لفهم القرآن الكريم أن نتتبع آياته كله لنحيط بمعانيه كقوله تعالى: ﴿ **إهدِنَا الصراطَ المستقيم، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم** ﴾[4] فقد جاء تفسير الذين أنعم الله عليهم في موضع آخر من القرآن الكريم في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ **ومنْ يطعِ اللهَ والرسولَ فأُولئكَ معَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم مِنَ النبيينَ والصديقين والشهداءِ والصالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً** ﴾[5].

(١) سورة ابراهيم. الآية ٤.
(٢) سورة طه الآية ١١٣.
(٣) سورة يوسف ٢.
(٤) الفاتحة الآيات / ٦-٧.
(٥) سورة النساء، الآية ٦٩.

وكذلك الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا أوْفُوا بالعقودِ، أحلتْ لكُم بَهيمةُ الأنْعَامِ إلا ما يُتْلى عَلَيْكُم، غَيرَ مُحلي الصيدِ وأنتمُ حُرُمٌ إن اللهَ يحكُمُ ما يُرِيدُ﴾(١) فسرتها آية أخرى في مكان آخر في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿إنما حَرمَ عَليكُمُ المْيتَةَ والدمَ ولحمَ الخِنْزيرِ وما أُهِلَّ به لغَيرِ اللهِ، فَمَن اضطُر غيرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إثمَ عليهِ إن اللهَ غفورٌ رحيم﴾(٢).

وكلمة الطارق في سورة الطارق فسرتها الآية التالية في نفس السورة في قوله تعالى: ﴿والسماءِ والطارقِ وما أدْرَاكَ ما الطارقُ النجمُ الثاقِبُ﴾(٣). والآية في سورة النحل ﴿وعلى الذينَ هَادُوا حرَّمْنَا ما قصَصْنَا عليكَ مِنْ قَبْلُ وما ظلمناهُم ولكنْ كانوُا أنفُسَهُم يَظْلِمُون﴾(٤). فسرتها آية أخرى في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَعلى الذينَ هادُوا حَرَّمْنَا كلَّ ذي ظُفُرٍ ومنَ البَقرِ والغَنَمِ حَرَّمْنَا عليهم شُحُومَهُمَا إلا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أو الحَوايَا أو ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلكَ جَزَيْنَاهم بِبَغْيِهِمْ وإنا لَصَادِقُونَ﴾(٥).

٢- النوع الثاني من أنواع التفسير: تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية:

فالرسول ﷺ الذي نزل القرآن الكريم عليه، أولى الناس بفهمه ليستطيع هداية الناس وشرح أحكامه وبيان مبهمه أو مجمله قال تعالى: ﴿وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَينَ لَهُمْ، فَيُضِلُ اللهُ من يَشَاءُ ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وهو العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(٦).

(١) سورة المائدة/ الآية ١.
(٢) سورة البقرة/ الآية/ ١٧٣.
(٣) سورة الطارق الآيات / ١-٣.
(٤) سورة النحل الآية١١٨.
(٥) سورة الأنعام الآية / ١٤٦.
(٦) سورة ابراهيم الآية ٤.

وقد فسَّر الرسول ﷺ الآيات التي لم يفهمها أصحابه كقوله تعالى: ﴿الذينَ جَعَلُوا القرآنَ عِضِينَ﴾[1] فسأله أصحابه ما عضين؟ قال: هم اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض[2].

وسأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه الرسول ﷺ عن معنى الجزاء الذي ذكر في الآية: ﴿ليسَ بأمانِيكُم وَلا أمَاني أهْلِ الكتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ، وَلا يجِدُ من دون الله وَلياً ولا نَصِيراً﴾[3]، قال الرسول ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست يصيبك البلاء؟ قال: بلى. قال: فهو ما تجزون به»[4].

وفسر الرسول ﷺ دلوك الشمس في الآية: ﴿أقم الصلاةَ لِدُلوكِ الشمسِ﴾[5] بأنه الزوال[6].

وفسر الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿..غيرِ المغْضُوبِ عليهم ولا الضَّالين﴾[7] بأن المغضوب عليهم هم اليهود وأن الضالين هم النصارى[8] وفسر ﷺ الكوثر في قوله تعالى: ﴿إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر﴾[9] بأنه نهر في الجنة[10].

(١) سورة الحجر/ ٩١.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٢.
(٣) سورة النساء الآية ١٢٣.
(٤) مسند الإمام أحمد ١-١١.
(٥) سورة الإسراء/ الآية ٧٨.
(٦) تفسير ابن كثير ج٣/ ٥٣.
(٧) سورة الفاتحة الآية ٧.
(٨) اخرجه أحمد ٤/ ٣٧٨ والترمذي ٤/ ٢٧١.
(٩) سورة الكوثر الآية ١.
(١٠) أخرجه أحمد ٣/ ١٠٢ ومسلم ٢/ ١٢.

٣- تفسير الصحابة رضوان الله عليهم:

ليس العرب كلهم بمستوى واحد في فهم القرآن الكريم، فالصحابة الذين جالسوا الرسول ﷺ أكثر فهماً له من غيرهم، وبقية الأعراب في الجزيرة العربية أقل فهماً من الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعون أقل فهماً من سائر الصحابة، وهكذا كلما ابتعدت الأجيال عمن حضروا نزول الوحي هم أقل معرفة بمعاني القرآن الكريم ممن سبقوهم، فكان هؤلاء يرجعون إلى الصحابة رضوان الله عليهم لفهم الآيات الكريمة وأسباب نزولها.

وبعد الفتوحات الإسلامية أرسل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض أصحابه إلى الأمصار الإسلامية لشرح أحكام الدين وتفسير القرآن الكريم لعامة الناس من العرب والأعاجم، فقد أرسل عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود إلى الكوفة، وأرسل معاذ بن جبل إلى الشام، وعبدالله بن عمرو بن العاص إلى مصر[1]، فتتلمذ على يد هؤلاء الصحابة عدد من التابعين، وتأسست على أيديهم مدارس التفسير الأولى في هذه البلدان، حيث جلسوا في المسجد الحرام بمكة، ومسجد الرسول ﷺ في المدينة، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، والمسجد الأموي بدمشق، والمسجد الأقصى ببيت المقدس، ومسجد عمرو بن العاص في الفسطاط بمصر، فكانت هذه المساجد بمثابة جامعات خرجت أعداداً كبيرة من علماء المسلمين في التفسير والفقه والحديث وسائر العلوم الإسلامية.

٤- تفسير التابعين رضوان الله عليهم:

وقد جاء هؤلاء بعد الصحابة، حيث جلسوا في المساجد يعلمون الناس شؤون دينهم، ويفسرون القرآن الكريم، ويحدثون الناس فيما جاء عن

(١) ابن سعد. الطبقات الكبرى ج٦/ ٧.

الرسول ﷺ، خاصةً بعد أن انتشر الإسلام، وفتحت البلدان، وأسلم الأعاجم، وبنيت المدن الإسلامية كالفسطاط والبصرة والكوفة والقيروان، فانتشر العلماء من التابعين في هذه المدن وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى، وتفرغوا لخدمة دين الله الحنيف، فكانوا هم الطبقة الثانية من رواد المدارس الدينية بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

٥- المفسرون الذين جاؤوا بعد التابعين في القرن الثاني الهجري:

وهم الذين أخذوا عن سابقيهم من التابعين والصحابة رضوان الله عليهم وما تواتر عن الرسول ﷺ. وقد التزم هؤلاء المفسرون من هذه الطبقة بخطى سابقيهم في الاعتماد على الإسناد في ذكر الروايات وتفسير معاني القرآن الكريم من أمثال: شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)، وكيع بن الجراح (ت١٩٧هـ) سفيان بن عيينه (ت١٩٨هـ)، يزيد بن هارون السلمي (ت٢٠٦هـ)، آدم بن إياس (ت٢٢١هـ) إسحق بن راهوية (ت ٢٣٨هـ).

٦- طبقة القرن الثالث الهجري:

وهم الذين استمروا في الاعتماد على الأسانيد والتزموا في التفسير على ما ورد عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ومن أمثال هؤلاء المفسرين: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) ابن ماجة (ت ٢٧٣هـ) ابن حبان البستي (ت ٣٥٤ هـ).

٧- المفسرون الذين لم يعتمدوا الأسانيد في أسلوب التفسير:

وقد فسح هؤلاء المفسرون المجال لمن أراد أن يدخل الدخيل، فالتبس القديم بالجديد عن قصد أو عن غير قصد، فأظهروا الاجتهاد في التفسير ومن أشهر هؤلاء

المفسرين: أبو إسحاق الزجاج النحوي (ت ٣١٠هـ)، أبو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ)، أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ)، أبو العباس المهدوي (ت٤٣٩هـ).

٨- طبقة المفسرين الذين أخذوا بعلوم أخرى بجانب التفسير لخدمة التفسير نفسه:

بعد أن كثرت العلوم، وتعددت مذاهب العلماء، فهذا الرازي يورد آراء الفلاسفة ويرد عليهم أثناء التفسير، وهذا القرطبي يهتم بالمسائل الفقهيه في تفسيره، وهذا أبو حيان يهتم بالإعراب أثناء التفسير أيضاً.

٩- التفسير بالرأي والاجتهاد:

بالاعتماد على ما أثر عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين رضي الله عنهم ومعرفة اللغة وأحكام الدين ومن أمثال هؤلاء المفسرين الإمامين الجليلين صاحبي تفسير الجلالين والإمام البيضاوي صاحب تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل. والإمام الرازي صاحب تفسير مفاتيح الغيب، والإمام أبو السعود صاحب تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والنسفي صاحب تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، والآلوسي صاحب تفسير روح المعاني.

١٠- تفاسير أهل الفرق المختلفة:

كالصوفيين والمعتزلة والشيعة والخوارج بفرقهم المختلفة، وقد خرج هؤلاء بآراء وأقوال جديدة وفاسدة لا أصل لها في الدين، فقد بالغوا في التأويلات وأخرجوا النصوص عن ظاهرها فحادوا عن الإسلام لشدة تعصبهم وغلوهم ومبالغاتهم، فظهرت البدع في تفاسيرهم، فانحرفوا عمَّا جاء عن السلف الصالح، وإنه ينبغي عدم التعويل على تفاسير هؤلاء لغلوهم الشديد وتفريطهم في أمور الدين.

مدارس التفسير الأولى في العواصم الإسلامية:

١- مدرسة التفسير بمكة المكرمة: وتسمى مدرسة عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف لأنه مؤسسها، ولد قبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات، ودخل الإسلام مع والده في السنة الثامنة من الهجرة، كان ذكياً حليماً سريع الفهم والبديهة[١] خالته ميمونه بنت الحارث الهلالية زوج النبي ﷺ، فكان يدخل بيتها ويجالس الرسول ﷺ ويسمع منه كثيراً[٢] فدعا له الرسول بقوله: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»، «**اللهم علمه الكتاب**»، «**اللهم علمه الحكمة**»[٣].

كان قوي الحجة وله مكانة عالية عند الصحابة مرجعاً لهم في فهم الآيات الكريمة، فقد قال عنه تلميذه بمدرسة مكة سعيد بن جبير: «إن كان ابن عباس ليحدثني الحديث فلو يأذن لي أن أقبل رأسه لفعلت»[٤].

ومن تلاميذه أيضاً طاووس بن كيسان اليماني الجَنْدي من التابعين، وقد شهد له ابن عباس بالورع والتقوى، شيخ أهل اليمن وفقيههم مات سنة ١٠٦هـ[٥]، وعطاء بن أبي رباح القرشي، شهد له ابن عباس بالعلم، قيل: إنه حج أكثر من سبعين حجة[٦] وعكرمة مولى ابن عباس، والضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي، ومعاذ بن جبل.

---

(١) ابن عبدالبر. الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج٢/ ٣٤٤.
(٢) ابن سعد. الطبقات الكبرى ج٢/ ٣٦٥.
(٣) صحيح البخاري بشرح الفتح. كتاب العلم ١/ ٢٧.
وكتاب أصحاب النبي ﷺ ج٤/ ٢١٧.
صحيح مسلم في فضائل الصحابة ج٧/ ١٥٨.
(٤) ابن عبدالبر. الاستيعاب ج٢/ ٣٧٠.
(٥) الحافظ محمد بن أحمد الذهبي، تذكرة الحفاظ ج١/ ٩٨.
(٦) المصدر نفسه ج١/ ٩٨.

٢- مدرسة المدينة المنورة: ومؤسسها أبو المنذر أبيُّ بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري الخزرجي من بني النجار، حضر بيعة العقبة الثانية من وفد يثرب الذين بايعوا الرسول ﷺ قبل هجرته إلى يثرب، من كتاب الوحي، كتب للرسول ﷺ إلى حكام عصره لدعوتهم إلى الإسلام وقرأ له ما كتبه له هؤلاء الحكام[١]. ويعد من القراء المشهورين ورابع أربعة جمعوا القرآن الكريم على عهد الرسول ﷺ وهم: أبيُّ بن كعب، معاذ بن جبل، زيد بن ثابت الأنصاري، وأبو زيد[٢]، وكان يقرأ القرآن في ثمان ليال.

وقد فاقت المدينة على مكة بحكم كونها عاصمة الدولة الإسلامية الأولى وملجأ الصحابة الأولين والتفافهم حول الرسول ﷺ وشهدت نزول الوحي وتدوين القرآن الكريم.

كما كانت في عهد الراشدين رضي الله عنهم منطلق الفتوحات، فازدهرت بعلم التفسير والحديث والتاريخ والفقه، فقصدها طلاب العلم، وبها ظهر تلاميذ مدرستها من التابعين: زيد بن أسلم أبو أسامة العدوي المدني (ت ١٣٣ هـ) مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان له حلقة بمسجد الرسول ﷺ. وأبو العالية الرياحي رفيع بن مهران البصري الفقيه المقرئ (ت٩٠ هـ)، ومحمد بن كعب القرظي (ت١٢٠هـ) والواقدي ومحمد بن إسحاق.

ومن علمائها الأوائل أيضاً: زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعروة بن الزبير وسعيد بن المسيب، شيخ الإسلام فقيه أهل المدينة رأس التابعين (ت٩٣هـ).

---

(١) ابن سعد. الطبقات الكبرى ج٣/ ٥٠١.

(٢) صحيح البخاري ج٣/ ١٨٩، صحيح مسلم بشرح النووي ج١٦/ ١٩.

٣- مدرسة البصرة: ومن أقدم علمائها عبدالله بن قيس أبو موسى الأشعري، أرسله الخليفة عمر والياً على البصرة، وكان عالماً بالتفسير والحديث، وكذلك أنس ابن مالك، لازم النبي ﷺ في المدينة عشر سنين وهو طفل ابن عشر سنين، ثم رحل إلى البصرة بعد فتح العراق في خلافة عمر رضي الله عنه وبقي فيها حتى وفاته سنة ٩٢هـ، ثم تطورت هذه المدرسة على يد تلاميذ علمائها الأوائل أمثال الحسن البصري وابن سيرين وغيرهما.

٤- مدرسة الكوفة: ومؤسسها عبدالله بن مسعود الهذلي. حيث أرسله الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الكوفة ليكون فيها قاضياً ومعلماً، وقد شهد له الرسول ﷺ بالعلم[1] سادس من أسلم، كان راعياً لعقبة بن أبي معيط فأعزه الله بالإسلام فحفظ القرآن الكريم من فم الرسول ﷺ، هاجر إلى الحبشة وعاد إلى مكة، وهاجر إلى المدينة مع المهاجرين الأولين، حضر الغزوات كلها وهو قاتل أبي جهل في غزوة بدر الكبرى، كان من كتبة الوحي مفسراً عالماً بأسباب نزول الآيات لكثرة ملازمته للرسول ﷺ.

ومن تلاميذه بالكوفة من التابعين الذين ترعرعت مدرسة الكوفة على أيديهم: زر بن حبيش بن حباشة (ت٨٢هـ) وعبدالله بن حبيب بن ربيعة السلمي (ت٧٤هـ) وعبدالله بن نضلة الخزاعي الكوفي (ت٧٥هـ) وعلقمة بن قيس بن عبدالله النخعي الكوفي (ت ٦٢ هـ) ومسروق بن الأجدع الهمداني (ت ٦٣ هـ) وعامر الشعبي بن شراحبيل الحميري (ت١٠٣هـ).

٥- مدرسة الشام: والشام كثيرة البلدان وأشهرها: بيت المقدس ودمشق وحلب وحمص، عكا، حماه، صيدا، صور، غزة، نابلس، بيسان.

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ج٣/ ٣٨٩.

جاءها الإسلام فانتشر فيها الصحابة حين وجههم إليها الخليفة عمر بن الخطاب لتعليم الناس شؤون دينهم، ومن هؤلاء المعلمين الأوائل: عبادة بن الصامت الذي أقام بحمص، أبوالدرداء أقام بدمشق، معاذ بن جبل ببيت المقدس، عبدالرحمن بن غنم بدمشق، فتخرج على أيديهم عدد كبير من التابعين أشهرهم أبو إدريس الخولاني، مكحول الدمشقي، عمر بن عبدالعزيز، رجاء بن حيوة، عبدالرحمن الأوزاعي.

٦- مدرسة مصر: ومؤسس مدرستها عبدالله بن عمرو بن العاص: فكان يجلس بمسجد عمرو بن العاص بالفسطاط يعلم الناس أحكام الدين فتخرج على يديه عدد من التابعين منهم يزيد بن أبي حبيب وعبدالله بن أبي جعفر وعبدالله بن لهيعة وجعفر بن أبي ربيعة والليث بن سعد، فكان هؤلاء من أئمة الفتوى بمصر في فجر الإسلام وصدره.

ولم تتوقف المدارس الإسلامية عند هذا الحد بل ظهرت مدارس أخرى كثيرة جداً أهمها مدرسة القيروان وقرطبة وغرناطة وبغداد والموصل ومرو وبخارى حتى أصبحت دولة الإسلام شعلة الحضارة بمختلف فروعها في النظم والعلوم والفنون.

ثانياً: الحديث الشريف:

تعريفه: هو كل ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير«رآه فسكت عليه من باب الإقرار له»[1]

منزلته في التشريع الإسلامي: يأتي الحديث وسنة الرسول ﷺ والعمل بهما في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، وهما حجة على الأمة الإسلامية لعموم الآيات الدالة على ذلك وما ورد عن الرسول ﷺ في وجوب العمل بسنته؛ لأنها جاءت شارحة ومبينة لما في القرآن الكريم من تعاليم وأحكام وأركان مفروضة.

الأدلة من القرآن الكريم على وجوب العمل بالحديث الشريف:

قوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[5].

---

(١) السيوطي، تدريب الراوي شرح تقريب النووي/ ص٤.
(٢) سورة النساء، الآية/ ٨٠.
(٣) سورة الحشر، الآية/ ٧.
(٤) سورة النساء، الآية٥٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(٢).

وكان الرسول ﷺ يطلب من أصحابه تبليغ ما يسمعونه عنه فقال: «نضر الله تعالى عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها. فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(٣).

وقال في خطبة الوداع: «ألا فليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ فرب مبلَّغ أوعى من سامع»(٤).

تدوين حديث الرسول ﷺ:

لم يألف العرب قبل الإسلام الكتابة والقراءة إلا في القليل النادر وفي بعض مدن الجزيرة العربية مثل: مكة والطائف ويثرب، وبعد نزول الوحي على الرسول محمد ﷺ تغير الحال كثيراً في حياة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، أما فيما يتعلق بالكتابة والقراءة فإن القرآن الكريم والرسول ﷺ حثا المسلمين كثيراً على طلب العلم والاهتمام به، فجلس أصحابه يتعلمون ويعلمون ويكتبون القرآن الكريم أولاً بأول بين يديه، إضافة إلى حفظه في الصدور، غير أن الكتابة والتدوين لم تكن قوية وعلى نطاق واسع عند الناس في بادئ الأمر.

---

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية / ٢١.
(٣) أخرجه أبو داود وأحمد وابن ماجه، ورواه الشافعي والبيهقي.
(٤) محمد الخضري بك، نور اليقين/ ٢٦٧.

وفيما يتعلق بتدوين أحاديث الرسول ﷺ مر بعدة مراحل نذكرها كما يأتي:

أولاً: تدوين الحديث الشريف في حياة الرسول ﷺ:

في المرحلة الأولى من دعوة الرسول ﷺ كان اهتمام أصحابه موجهاً إلى القرآن الكريم حفظاً في الذاكرة وتدويناً على الرقاق وغير ذلك من الأدوات التي كانت متوفرة لديهم، أما أحاديث الرسول من أقوال وأفعال وأمور رآها فسكت عليها تقريراً لها، فإن الصحابة كانوا يتذاكرونها فيما بينهم ويبلغونها إلى غيرهم مشافهة، وبحرص شديد في أدائها كما هي خوفاً من الزيادة أو النقصان منها.

وقد نهى الرسول ﷺ في هذه الفترة عن تدوين أحاديثة خوفاً من اختلاطها بالقرآن الكريم وإشفاقاً على أصحابه من إشغالهم في متابعة كل ما يقول أو يفعل لتدوين ذلك، فقد أثر عنه ﷺ قوله: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»(١).

وعن علي رضي الله عنه عن عبدالله بن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم ارحم خلفائي. قلنا: يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يروون أحاديثي ويعلمونها للناس**»(٢).

أما المرحلة الثانية من الدعوة إلى الإسلام في المدينة المنورة حينما استقر المسلمون فيها وثبت أمر الإسلام وانتشرت القراءة والكتابة وكثر حفاظ القرآن الكريم ومدونوه بين يدي الرسول ﷺ وأمِنَ الرسول من اختلاطه بالحديث، فعندئذ

(١) ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله ج١/ ٦٣.
صحيح مسلم بشرح النووي ج٨/ ٢٢٩.
(٢) مقدمة تفسير القرطبي/ ٣٦.

سمح الرسول لبعض أصحابه بتدوين الحديث الشريف بشكل منفصل عن تدوين القرآن الكريم. فقد ورد عنه ﷺ قوله في رواية عن أبي هريره رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار شكا إلى الرسول ﷺ سوء حفظه فقال له: «**استعن بيمينك، وأومأ بيده إلى الخط**»(١).

وقال: «**قيدوا العلم بالكتاب**»(٢) وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سأل النبي ﷺ في شأن الكتابة قائلاً له: أأكتب كل ما أسمع؟ قال: «**نعم**». قال: في الرضى والغضب؟ قال: «**نعم. فإني لا أقول في ذلك إلا حقاً**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب وكنت لا أكتب(٤).

ومن هؤلاء الذين كتبوا عن الرسول ﷺ سعد بن عبادة الأنصاري (١٥هـ) وسمرة بن جندب (ت٦٠هـ) وجابر بن عبدالله (ت ٧٨ هـ) وعبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ) وعبدالله بن عباس (ت ٦٩هـ)(٥).

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم/ ٦٧.
(٢) ابن عبدالبر. جامع بيان العلم ج١/ ٢٧.
(٣) المصدر نفسه ج١/ ٧١.
(٤) الخطيب البغدادي، تقييد العلم/ ٨٢.
ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ج٤/ ١١٢.
(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى ق٢ ج٢/ ١٢٣.
ابن عبدالبر، جامع بيان العلم ج١/ ٧٤.
ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب ج٤/ ١٩٨.
حيدر آياد ١٣٢٧هـ

ثانياً: تدوين الحديث في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

تشدد الصحابة كثيراً بعد وفاة الرسول ﷺ في قبول الأحاديث النبوية إلا بعد التأكد من صحتها خوفاً من الكذب على لسانه ﷺ ، وخوفاً من الاشتغال عن القرآن الكريم بسواه[1] . وكان تداول أحاديث الرسول في هذه الفترة مشافهة، ويطلب الصحابة شهوداً على ما يسمعونه من أحاديث على سبيل التحرز من الكذب الذي نهى عنه الرسول ﷺ، فقد روي أن امرأة جاءت إلى أبي بكر تطلب منه ميراثاً لها فقال لها: «ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن الرسول ﷺ ذكر لك شيئاً. ثم سأل الناس فقام المغيرة بن شعبة فقال: كان رسول الله ﷺ يعطيها السدس. فقال: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه[2] .

وكان موقف الخليفة عمر رضي الله عنه بمثل ذلك من التحري والدقة، ففي رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال: استأذنتُ على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت وقال رسول الله ﷺ: **«إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»** فقال: والله لتقيمن عليه ببينة، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبيٌّ بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقمت معه، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك، فقال: عمر لأبي موسى الأشعري: أما إني لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله»[3] .

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم / ٥٧ .

(٢) موطأ الإمام مالك. كتاب الفرائض.

(٣) موطأ الإمام مالك. ج٢/ ٩٦٤ .

ثالثاً: عهد التابعين حتى نهاية القرن الأول الهجري:

استمر الأمر على ما كان عليه الحال في عهد الصحابة أن يتذاكر الناس أحاديث الرسول ﷺ مشافهة ولم تدون هذه الأحاديث مجموعة أو يجري على تلك الصحف القديمة التي كتبها الصحابة والتي أشرنا إليها سابقاً أي زيادة أو نقصان، إلا أنه في أواخر القرن الأول الهجري ظهرت الفرق بآرائها المتباينة فأدى ذلك إلى التقول على لسان الرسول ﷺ؛ مما دفع بعدد من العلماء المخلصين أن يتحملوا مسؤوليات شاقة لتنقية سنة الرسول ﷺ بالرحلة في مختلف الأمصار الإسلامية لجمعها وتدوينها، وأما هذه الأسباب التي أدت إلى تدوين الأحاديث فهي كما يلي:

١- الكذب على لسان الرسول ﷺ من قبل معتنقي بعض الفرق التي اختلفت فيما بينها وهي فرق الخوارج والشيعة، فصار هؤلاء يختلقون الأحاديث ضد بعضهم البعض لكي تدعم كل فرقة موقفها دون النظر إلى مخاطر إدخال أمور في الشريعة الإسلامية مما ليس فيها، وكان الرافضة أكثر هذه الفرق كذباً على لسان الرسول ﷺ[(١)].

وقد فسح هذا المجال من ظهور هذه الفرق المارقة عن الجماعة الإسلامية أن يكشف الزنادقة عن وجوههم، فعمدوا إلى الدس على لسان الرسول ﷺ لإفساد عقيدة المسلمين وتفريق صفوفهم وزيادة الانقسام بينهم.

٢- الجهلة من عامة المسلمين الذين وضعوا الأحاديث بغية الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم لا يعرفون أنهم يقعون في المحظور الذي نهى عنه الرسول ﷺ حين قال: «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[(٢)].

---

(١) مناع القطان، التشريع والفقه في الإسلام/ ٢١٧.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج٨/ ٢٢٩.

٣- المنافقون الذين وضعوا الأحاديث بغية إرضاء بعض الأهواء والشهوات لدى الأمراء والحكام، فوضعوا لهم أحاديث ترضي هذه الأهواء وتبيحها.

رابعاً: التدوين بعد نهاية القرن الأول الهجري:

ونتيجة لهذه الأسباب السابقة في وضع أحاديث كثيرة على لسان النبي ﷺ أصبح والحالة هكذا أن يتنبه المخلصون لجمع أحاديث الرسول ﷺ وتمييز مما وضع فيه ولم يقله. فقد ورد عن الزهري (ت ١٢٤هـ) قوله: «لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق نكرهها لا نعرفها ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابته، يا أهل العراق، يخرج الحديث عندنا شبراً ويصير عندكم ذراعاً»[١].

وقد تصدى جهابذة الأمة الإسلامية لما دخل في أحاديث الرسول ﷺ، فوضعوا لذلك منهجاً علمياً دقيقاً لتمييز بعضها عن بعض، وسلكوا مسلك النقد والتمحيص في سند الروايات بتتبع الرواة بالبحث عنهم إن كانوا عدولاً أو ثقات، أو أنهم من أهل البدع، ولم تأخذ هؤلاء المخلصين في الحق لومة لائم، كما تتبعوا متون الأحاديث إن كانت مخالفة لآيات من القرآن الكريم، أو مخالفة للعقل أو الحس أو المشاهدة، أو يتضمن المتن وعيداً شديداً بسبب أمر صغير أو حقير[٢].

ومن أوائل المدونين أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بأمر من الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ)، وابن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ) بأمر

(١) الخطيب البغدادي. تقييد العلم/ ١٠٨.
حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ج٢/ ١٤٦.
(٢) السيوطي. تدريب الراوي بشرح النووي/ ٨٨ وما بعدها.

من الخليفة عمر بن عبدالعزيز[1] بعدما استشار علماء الحديث من التابعين من أمثال سعيد بن المسيب (ت١٠٥هـ) وعامر الشعبي (ت١٠٤هـ) ومجاهد بن جبير (ت١٠٣هـ) وعطاء بن أبي رباح (ت١١٤هـ) وقتادة بن دعامة السدوسي (ت١١٨هـ)[2] وقد تنقل هؤلاء العلماء من التابعين بين المدن الإسلامية، البصرة، الكوفة، الشام، المدينة المنورة، مكة، مصر، وهم يبحثون عن رواة الحديث للتأكد من صحة الأحاديث التي جمعوها[3].

وقد تشددوا كثيراً في قبول الروايات، فنشأ نتيجة لذلك علم الحديث رواية وعلم الحديث دراية، وأما الرواية فتتعلق بكل ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير[4] وأما علم الحديث دراية فيتعلق بحال الراوي والمروي من حيث القبول والرد[5]، ويعرف هذا العلم عند المحدثين بعلم أصول الحديث.

وقد صنف المحدثون الذين جمعوا أحاديث الرسول ﷺ تلك الأحاديث إلى مراتب بحسب طرق النقد والتمحيص، فمنها: الصحيح، الحسن، الضعيف، المرسل (ما سقط منه الصحابي في الرواية) والمنقطع (منقطع الإسناد) والمعضل (ماسقط منه راويان أو أكثر)، والمدلس (وهو الحديث الذي يؤديه الراوي عمن عاصره ولقيه مع أنه لم يسمع منه)(أو أن يصف الراوي بأوصاف أكبر من حقيقته) والمعلل (وهو الحديث الذي فيه علة تقدح في صحته)، والمضطرب (وهو الذي

(١) ابن عبدالبر. جامع بيان العلم ج١/ ٧٦.
مناع القطان، التشريع والفقه في الإسلام/ ٢٢٢.
(٢) الخطيب البغدادي. تقييد العلم/ ١٠٥.
ابن عبدالبر، جامع بيان العلم ج١/ ٧٣.
(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ ج١/ ١٠٧.
(٤) محمد عبدالعظيم الزرقاني، المنهل الحديث في علوم الحديث/ ٣٥.
(٥) الخطيب البغدادي. الكفاية في علم الرواية/ ٩٧.

تتعدد رواياته) والمقلوب، والشاذ (وهو ما فيه مخالفة للثقات)، والمنكر (وهو الحديث الذي يرويه الضعيف مخالفاً رواية الثقات)، والمتروك و(هو ما يرويه راو واحد متهم بالكذب أو ظاهر الفسق)[1].

خامساً: حركة تصنيف المؤلفات في الحديث:

وقد انتشرت حركة التأليف في الحديث الشريف في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ثم توسعت حركة التأليف بعد ذلك حتى ملأت كتب الحديث المكتبات العامة والخاصة، ومن أوائل هؤلاء المؤلفين:

١- مالك بن أنس بن مالك الأصبحي اليمني إمام دار الهجرة (٩٣-١٧٩هـ) صاحب الموطأ الذي استغرق في تأليفه ما يقرب من أربعين سنة، وعرضه على عدد كبير من فقهاء المدينة، أدرك الخليفة عمر بن عبدالعزيز، كان جده مالك قد أقبل إلى المدينة في عهد الرسول ﷺ، اهتم الإمام مالك بحفظ القرآن ورواية الحديث وحفظه حتى أصبح من شيوخ المدينة والتدريس بمسجد الرسول ﷺ.

٢- أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ) وكتابه الجامع الصحيح الذي استغرق في كتابته ست عشرة سنة.

٣- الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (٢٠٤-٢٦١هـ) وكتابه صحيح مسلم.

٤- أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ) وكتابه سنن أبي داود.

---

(١) صبحي الصالح. علوم الحديث ومصطلحه/ ١٦٦.

٥- الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك السلمي الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ) وكتابه الجامع الكبير.

٦- الإمام الحافظ أبو عبدالرحمن أحمد بن علي بن شعيب المعروف بالنسائي (٢١٥-٣٠٣هـ) وكتابه المعروف المجتبى.

٧- ابن ماجه أبو عبدالله محمد بن يزيد الربعي القزويني (٢٠٩-٢٧٣هـ) وكتابه سنن ابن ماجه.

٨- الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي (١٦٤-٢٤١هـ) وكتابه مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٩- مسند أبي داود الطيالسي سليمان بن الجارود (١٣٣-٢٠٤هـ).

١٠- صحيح ابن خزيمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي (٢٢٣-٣١١هـ).

١١- صحيح أبي عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري (ت٣١٦هـ).

١٢- صحيح ابن حبان أبو حاتم بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي البستي (ت٣٥٤هـ).

١٣- سنن الدارمي أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي الدارمي السمرقندي (١٥٠-٢١٤هـ).

١٤- سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني (٣٠٦-٣٨٥هـ).

وقد صنف هؤلاء المؤلفون كتب الحديث على طرائق متعددة في جمع الحديث كما يلي:

١- منهم من صنف الأحايث على أساس الأحكام مثلما فعل الإمام مالك بن أنس في كتابه الموطأ، وعبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج بمكة. والأوزاعي في الشام، وأبو حنيفة والثوري في الكوفة[١].

٢- ومنهم من جمع الأحاديث على حسب الرواة، وهي مسانيد الرواة مثل: مسند أحمد بن حنبل، وسنن أبي داود الطيالسي، ومسند ابن راهويه.

٣- ومنهم من جمعه على حسب نوع الحديث، مثل: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للإمام الحافظ أبي العباس الزبيدي[٢].

٤- ومنهم من جمعه على أساس الأبواب في صحيح البخاري وصحيح الإمام مسلم[٣].

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٤٢.
(٢) ابو زيد شلبي. تاريخ الحضارة الإسلامية ١٩٩.
(٣) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٤٢.

ثالثاً: الفقـــــه:

تعريفه في اللغة: الفهم والمعرفة.

ومعناه اصطلاحاً: معرفة الحلال والحرام وسائر الأحكام الشرعية المستنبطة من مصادر الشريعة الإسلامية.

وعـرفـه ابن خلدون بأنه مـعـرفـة أحكام الله تعـالى في أحكام المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة.[1].

فالفقه إذن يتعلق بمعرفة الأحكام الشرعية التي شرعها الله لخلقه، ويستدعي ذلك بالضرورة فهم القرآن الكريم وحفظه والأحاديث الشريفة بعمومها، قال تعـالى: ﴿ شَـرعَ لَكُم مِنَ الدينِ مَـا وصَّى بهِ نُوحَـاً.. ﴾[2]، وقـال تعـالى: ﴿ ثُم جَعَلْنَاكَ على شريعةٍ من الأمْرِ فاتَّبِعْهَا وَلا تتَّبِعْ أهْواءَ الذينَ لا يعلَمُون ﴾[3].

- ظهور علم الفقه في الإسلام:

لم يعـرف العـرب قـبل الإسـلام شـيـئـاً عن الفقـه؛ لأنه علم يتـعلق بـالدين الإسلامي عقيدة وعباد، ة وما يتصل بالتشريع والسياسة والاجتماع والاقتصاد من منطلق إسلامي بحت؛ فهولذلك يختلف عن القوانين الوضعية التي تضعها الدول فتصلح لعصر دون عصر، وتخضع للتغيرات التي تطرأ على حياة الشعوب، أما بيان الأحكام الفقهية فهي ثابتة معتمدة على أصل الدين الإسلامي في القرآن

(١) مقدمة ابن خلدون / ٤٤٥.
(٢) الشورى/ ١٣.
(٣) الجاثية/ ١٨.

الكريم والسنة النبوية في تحقيق سعادة الناس في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلعَالَمِين﴾[1].

ولم تظهر كلمة فقيه التي تدل على العارف بأحكام الشرع، لم تظهر في فجر الإسلام في حياة الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم إلا أواخر القرن الأول الهجري؛ لأن الصحابة في حياة الرسول ﷺ كانوا يفهمون أحكام الدين منه مباشرة وبعد وفاته ﷺ، كان يطلق على هؤلاء العارفين بأحكام الدين من الصحابة والتابعين القُراء من الناس، وهم الذين يحفظون القرآن الكريم ويواظبون على تلاوته فهم أعرف الناس بأحكامه.

ثم ظهر الفقهاء في القرن الثاني الهجري وما بعده، وتطور مفهوم هذا العلم، وجرى تدوينه، وظهرت المخطوطات الفقهية حتى ملأت الخزائن والمكتبات، شأنه شأن سائر العلوم الأخرى، وفيما يلي بيان تطور هذا العلم في العصور الإسلامية الأولى.

الطور الأول: طور النشأة والبداية في عهد الرسول ﷺ:

ومدته ثلاث وعشرون سنة، وهي مدة نزول القرآن الكريم بواسطة الوحي على الرسول ﷺ في مكة والمدينة واعتماد التشريع في هذا الطور على مصدرين رئيسين هما:

المصدر الأول: القرآن الكريم، وفيه أحكام الدين التي كان يفهمها أكثر الصحابة؛ لأنه نزل مفصلاً لكل شيء بلغة العرب قال تعالى: ﴿**وَلَقَد ضَرَبْنا للناسِ في هذا القُرآنِ من كلِ مَثَلٍ لعلَّهم يَتَذكرُون، قُرآناً عَرَبياً غيرَ ذي عِوَجٍ لعلهم يتقُونَ**﴾[2].

(١) سورة الأنبياء/ ١٠٧.

(٢) سورة الزمر / الآيتان ٢٧-٢٨.

وقال تعالى: ﴿نَزَلَ به الرُوحُ الأمينُ، على قَلبِكَ لتكونَ من المُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍ مُبِينٍ﴾(١).

وقد حرص الصحابة رضوان الله عليهم أثناء نزول القرآن على حفظه بحرص شديد وتلاوته آناء الليل والنهار، وتدبر معانيه لكي لا يفوتهم فهمه والعمل به أولاً بأول، وخاصة ما يتعلق بالعقائد كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وتطبيق الأخلاق التي يدعو إليها القرآن الكريم وأحكام البيع والشراء.

المصدر الثاني: السنة النبوية، وهي كل ما صدر من الرسول ﷺ في بيان الأحكام:

فكان الصحابة رضوان الله عليهم يجالسونه ويفهمون منه ما أشكل عليهم، ويسألونه فيجيبهم، ويبين لهم وتفهم منه نساؤه وخاصة عائشه رضي الله عنها ما يتعلق بأمور النساء فيشرحنها لنساء المسلمين، وكان الرسول ﷺ كثيراً ما يعظ أصحابه ويشرح لهم أحكام الدين في الحرب والسلم ونظم الحكم وما يتعلق بذلك من عدل ومساواه وشورى والعقوبات والمعاملات ونظام الأسرة والعبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج والأخلاق وشرح قصص الأنبياء السابقين، وإذا أشكل على أحدهم وهو بعيد عن الرسول ﷺ أسرع إليه يسأله، فقد جاء في صحيح البخاري عن عقبة بن الحارث وهو بمكة أن امرأة أخبرته بأنها أرضعته هو وزوجته، فركب من فوره وأسرع إلى المدينة يسأل الرسول ﷺ عن حكم ذلك، فأمره الرسول ﷺ أن يفارق زوجته ففارقها، وتزوجت غيره.

(١) سورة الشعراء/ الآيات ١٩٣-١٩٥.

وقد فهم الصحابة ضرورة تطبيق ما أمر به الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير من منطلق أن الرسول لا يأتي بشيء من عنده، وأنه مكلف من ربه في تبليغ رسالته السماوية قال تعالى: ﴿يَا أَيُها الرسولُ بلِّغْ مَا أُنْزِلَ اليكَ من ربكَ وإنْ لم تَفْعَل فما بلَّغتَ رسالتَه واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ إن اللهَ لا يَهدِي القومَ الكافرين﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿إنا أنْزَلْنَا إليْكَ الكتابَ بالحق لتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بِمَا أراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ للخَائنينَ خَصِيماً﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وأَنْزَلْنَا إليكَ الذكرَ لتُبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهم ولَعَلَّهُم يتفكرون﴾(٣).

وقوله تعالى في كل ما ينطق ببيانه الرسول ﷺ بأنه وحي من الله: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، إنْ هُوَ إلاَ وحْيٌ يُوحَى﴾(٤).

وطاعة الرسول ﷺ، والعمل بما يقوله واجب شرعي وليس عمل اختياري. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ ورسُولُهُ أمراً أنْ يكونَ لَهم الخِيرَةُ مَنْ أمْرِهم﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبكَ لا يُؤمنونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينَهم ثم لا يَجدُوا في أَنْفُسِهم حَرجاً مِمَا قضيتَ وَيُسَلموا تَسْليماً﴾(٦).

(١) سورة المائدة/ الآية ٦٧.
(٢) سورة النساء/ الآية١٠٥.
(٣) النحل/ الآية ٤٤.
(٤) سورة النجم/ ٣-٤.
(٥) سورة الأحزاب/ الآية٣٦.
(٦) سورة النساء الآية ٦٥.

وقد ارتبطت طاعة الله بطاعة الرسول ﷺ ؛ لأنه يبلغ الرسالة السماوية بأمر من الله عز وجل . قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَولى فَما أَرْسَلْنَاكَ عَلَيهم حَفِيظاً﴾(١).

وفي هذا الطور من حياته ﷺ كان لأزواجه دور كبير في توصيل أحكام الدين إلى نساء المسلمين، فقد ورد عنه ﷺ قوله: «**خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء -يقصد عائشة رضي الله عنها-**».

كما أمر ﷺ بعض أصحابه بالاجتهاد والفتيا. فعن معاذ بن جبل أن رسول الله لما بعثه إلى اليمن قال له: «**كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم يكن بسنة رسول الله؟ قال: أجتهد برأيي ولا آلو. قال:وضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول الله إلى ما يرضى رسول الله**»(٢).

وقد أقرَّ الرسول ﷺ حكم سعد بن معاذ في بني قريظه حينما حكم عليهم سعد بن معاذ بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم بعد الغدر الذي قاموا به بتحالفهم مع الأحزاب في غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة.

الطور الثاني: طور الاجتهاد في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

وقد تفاوت الصحابة رضوان الله عليهم في فهم أحكام الدين تبعاً لتفاوتهم بمجالسة الرسول ﷺ، فقد قال مسروق: لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالأخاذ (الغدير) فالأخاذ يروي الرجل، والأخاذ يروي العشرة، والأخاذ يروي المائة، والأخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم.

---

(١) سورة النساء الآية ٨٠.

((٢) رواه الإمام أحمد في المسند، كما رواه الترمذي في السنن برقم ١٣٤٢ وانظر: مناع القطان، التشريع والفقه في الإسلام١٠٤.

وأكثر الصحابة علماً السابقون الأولون إلى الإسلام وأكثرهم ملازمة للرسول ﷺ، ومنهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ بن جبل وأبيٌّ ابن كعب، زيد بن ثابت، عبدالله بن مسعود، أبو الدرداء، حذيفة بن اليمان، أبو هريرة، عبدالله بن عباس، عبدالله بن عمرو بن العاص، عبدالله بن عمر، عبدالله بن الزبير، عبادة بن الصامت، عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنهم جميعاً.

وقد تفرق أكثر الصحابة خارج الجزيرة العربية مجاهدين في سبيل الله لنشر الإسلام، وجلس بعضهم في المساجد يعلمون الناس شؤون دينهم في كل من البصرة، الكوفة، مدن بلاد الشام ومصر، فأسسوا أوائل المراكز العلمية والحضارية في هذه البلاد. وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤثر هذه البلاد بكبار الصحابة لتعليم الناس، كما كان الصحابة يتشاورون فيما بينهم فيما يعن لهم من مشكلات، فقد استشار الخليفة أبو بكر أصحابه في قتال المرتدين، واستشار الخليفة عمر أصحابه في أمر الأراضي المفتوحة خارج الجزيرة العربية، واستشارهم فيمن يرسله على قيادة جيش لمواصلة الفتح في العراق، واستشارهم حين قدم إلى الشام في طاعون عمواس سنة ١٧ هـ أيمضي في دخول الشام أم يعود إلى المدينة، واستشارهم في الذهاب إلى بيت المقدس حين طلب منه أبو عبيدة عامر بن الجراح قائد الجيوش الإسلامية في بلاد الشام أن يحضر لاستلام مفاتيح بيت المقدس بناء على طلب صفرونيوس الروماني حاكم المدينة في حينها، وشاور أصحابه في تدوين الدواوين.

وقد تعرض الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة إلى أول مسألة اجتهادية على غاية كبيرة من الأهمية، وهي مسألة الخلافة، فاجتهد الأنصار بأنها حق لهم، واجتهد المهاجرون بأنها حق لهم، ولكن المهاجرين والأنصار اتفقوا على

أن الخلافة حق للمهاجرين، وأجمعوا على خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم ظهرت مسألة اجتهادية أخرى في محاربة مانعي الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ، فأصر أبو بكر على محاربتهم ولم يفرق بينهم وبين سائر المرتدين.

وفي بداية خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه واجهت المسلمين أول مشكلة تتعلق بعبيدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين قتل الهرمزان وجفينه[1] لأنهما خططا لقتل الخليفة عمر، وقد شهد على ذلك عبدالرحمن ابن أبي بكر بأنه رآهما مع أبي لؤلؤة فيروز الفارسي قبل مقتل عمر ومعهم النصل الذي طعن به أبو لؤلؤة الفارسي الخليفة عمر، وكانوا يتناجون فيما بينهم وكأنهم يخططون لأمر ما[2].

وقد اجتهد الخليفة عثمان رضي الله عنه وحل هذه المسألة بأن عفا ابن الهرمزان عن عبيدالله بن عمر وأودى الخليفة عثمان القتيلين[3].

الطور الثالث: بعد نهاية عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم حتى نهاية القرن الأول الهجري

(وهي مرحلة صغار الصحابة والتابعين)

وقد انتشر القراء من حَفَظَة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في المدن الإسلامية، وهؤلاء من التابعين من تلاميذ الصحابة الذين أسسوا المدارس الإسلامية في كل من مكة والمدينة والبصرة والكوفة وفي بلاد الشام ومصر

(١) وهما فارسيان جيء بهما إلى المدينة فتظاهرا بالإسلام وخططا لقتل الخليفة عمر مع أبي لؤلؤة فيروز المجوسي، انظر: ص ٢٧ من هذا الكتاب.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤ / ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) الطبري. تاريخ الأمم والملوك ج٤/ ٢٤٣-٢٤٤.

والقيروان، وقد ظهرت في هذه الفترة بعض الفرق التي خرجت عن الجماعة الإسلامية بمفاهيم جديدة في الدين تعبر عن وجهة نظرها التي لا تستند إلى إجماع علماء المسلمين الذين حافظوا على أحكام الدين حسب ما فهموها من الرسول ﷺ، ومن هذه الفرق، الخوارج الذين نقموا على الخليفة علي ومعاوية من بعده، واستمروا في معارضتهم للجماعة الإسلامية وانقسموا على أنفسهم إلى فرق متعددة منهم: النجدات والأزارقة والإباضية والصفرية، ومن الفرق الأخرى المعتزلة، والشيعة الذين تعصبوا لآل البيت من ذرية علي رضي الله عنه (من أبناء فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ) وقد أدخل هؤلاء في التشريع ما ليس فيه من أحكام، وانقسموا على أنفسهم بفرق كثيرة لاختلافهم فيما بينهم ومنهم: الاثنا عشرية والإسماعيلية والنزارية والفاطمية والزيدية.

الطور الرابع: من القرن الثاني الهجري ممتداً إلى القرون التالية.

وقد دُوِّن الحديث الشريف في هذا القرن مما ساعد على تطور الفقه واستنباط الأحكام الشرعية بعدما أُلفت فيه كتب الحديث، وظهرت مدرسة الحديث في المدينة المنورة، وظهر في هذه المرحلة علماء مجتهدون، فترعرع علم الفقه على أيديهم، وسمي طور الفقه بطور الاجتهاد (طور الشباب) هو طور النضج والكمال بظهور المذاهب الأربعة.

- وأولها مذهب أبي حنيفة، النعمان بن ثابت الزوطي، الفارسي الأصل الكوفي النشأة، ولد في الكوفة سنة ٨٠هـ في خلافة عبدالملك بن مروان وتوفي سنة ١٥٠هـ في خلافة المنصور العباسي، عايش ظهور الفرق الإسلامية وضعف الدولة الأموية وانقسام الأمويين على أنفسهم؛ مما أدى إلى سقوطها وقيام الدولة العباسية مكانها، وقد ازدهرت الحركة العلمية في هذه الفترة، وقرب الخلفاء

العباسيون إليهم الفقهاء والعلماء والمؤلفين والمترجمين للعلوم السابقة، فانتشر التأليف على نطاق واسع في الدولة الإسلامية ومنها كتب الفقه الإسلامي، ومن مؤسسي هذا العلم في مرحلة تطورة، أبو حنيفة النعمان الذي تلقى علومه على علماء أهل الكوفة من أمثال: حماد بن أبي سليمان، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى عبدالله بن عباس، ونافع مولى عبدالله بن عمر، وكان أبو حنيفة على درجة عالية من الورع والفطنة والذكاء والصلابة في معرفة الحق؛ مما جعله يصل إلى درجة عالية من الفهم والمعرفة في أصول الدين التي بنى مذهبه عليها وهي: القرآن الكريم والسنة النبوية مع التشدد في قبول الأحاديث حتى يتأكد من صحتها ثم يميل إلى القياس(١) والاستحسان(٢).

وقد انتشر مذهب الإمام أبي حنيفة في العراق ومصر والهند والصين وما وراء النهر في البلاد التي يطلق عليه بلاد التركمان(٣).

وثاني هذه المذاهب الفقهية مذهب الإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي، ولد في المدنية سنة ٩٣هـ وتوفي سنة ١٧٩هـ.

---

(١) القياس: في اللغة رد الشيء إلى نظيره، وفي الفقه: حمل فرع على أصل لعلّة مشتركة بينهما كالحكم بتحريم شراب مسكر حملاً على الخمر لاشتراكهما في علة التحريم وهو الإسكار.
أحمد العليان، تاريخ التشريع/ ١٤٧ وما بعدها.

(٢) الاستحسان: هو طلب الأحسن للاتباع الذي هو مأمور به، وهو نوعان،
أولهما: العمل بالاجتهاد وغالب الرأي في تقدير ما جعله الشرع موكولاً إلى الرأي.
وثانيهما: هو الدليل المعارض للقياس الظاهر وتخصيص أحدهما بالاستحسان لكون العمل به مستحسناً. ومثاله: لو دخل جماعة بيتاً وسلبوا متاعه وحملوه على أحدهم فأخرجه على ظهره وخرجوا معه، ففي القياس القطع على الحمال خاصة وفي الاستحسان يقطعون جميعاً.
أحمد العليان، تاريخ التشريع والفقه الإسلامي، / ٢٢٦ وما بعدها.
المعجم الوسيط، مادة قيس، ١٤٧ وما بعدها.

(٣) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٤٨.

أقام في المدينة وعاصر الأحداث الجسيمة التي مرت بالدولة الأموية في أواخر عهدها، وعاصر ظهور الفرق الإسلامية، وتلقى العلم عن فقهاء المدينة، اهتم بحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، وكان له حلقة في مسجد الرسول ﷺ لشرح أحكام الدين، ويعتبر الإمام مالك من أئمة الحديث، وكتابه الموطأ من بين كتب الحديث الهامة في التشريع الإسلامي، ويقوم مذهبه على القرآن الكريم والسنة النبوية مع التشدد في قبول روايات الحديث وأقوال الصحابة والمصالح المرسلة (جلب المنافع ودفع الضرر) والقياس، حيث لا يوجد قرآن ولا سنة أو قول صحابي أو إجماع من أهل المدينة، وسد الذرائع (درء المفاسد أولى من جلب المنافع) للحيلولة من المحظور. وقد غلب مذهبه على الحجاز والبصرة ومصر، وإفريقية والأندلس وصقلية[1].

وثالث هذه المذاهب: مذهب الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبدالمطلب بن عبد مناف، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ وتوفي سنة ٢٠٤هـ بمصر، ظهر نبوغه مبكراً فحفظ القرآن الكريم في صغره، رحل إلى المدينة ولازم الإمام مالك حتى وفاته سنة ١٧٩هـ، ثم رحل إلى بغداد فأقام فيها مدة ثم عاد إلى مكة، وألقى دروساً في المسجد الحرام والتقى به الإمام أحمد بن حنبل بمكة، ثم رحل إلى مصر وألقى دروسه في جامع عمرو بن العاص حتى وفاته سنة ٢٠٤هـ.

أصول مذهبه القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع وقول الصحابة، وهو يعتبر من أصحاب الإمام مالك، يدافع عن آرائه وعن فقه أهل المدينة، ومن أشهر

(١) ابن خلدون، المقدمة، ٤٤٨.

كتبه: الأم ويقع في ثمانية أجزاء في الفقه، وكتاب الرسالة في علم أصول الفقه، وقد انتشر مذهبه بمصر والعراق وبلاد الشام وخراسان[1].

ورابع هذه المذاهب مذهب الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال: ولد سنة ١٦٤هـ وعاصر فتنة الأمين والمأمون، جمع العلم وهو صغير، وتصدى للزنادقة في عصره، واستفاد من كتب الأئمة الذين سبقوه مثل: أبي حنيفة والشافعي ومالك.

نشأ في البصرة وبغداد، وعرف بالاستقامة والورع وحسن الخلق، وجلس للفتيا ببغداد، ورفض القول بخلق القرآن كما يقول المعتزلة مما سبب له الأذى من الخليفة المأمون، ومن مؤلفاته المسند في علم الحديث، واعتمد في مذهبه على القرآن الكريم والسنة النبوية وفتاوى الصحابة والقياس، وانتشر مذهبه في المملكة العربية السعودية والشام[2] وتوفي سنة ٢٤١هـ.

الطور الخامس: طور التقليد:

وامتد هذا الطور من منتصف القرن الرابع الهجري حتى وقتنا الحاضر؛ لأن الناس بعد الأئمة الأربعة اتبعوا مذاهبهم خاصة بعدما دونت وانتشرت في العالم الإسلامي[3].

(١) ابن خلدون، المقدمة، ٤٤٨ وما بعدها.
(٢) ابن خلدون، المقدمة، ٤٤٨ وما بعدها.
(٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون/ ٤٤٨.
أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢٢٢.

رابعاً: التاريخ

لم يتعود العرب قبل الإسلام على تدوين أخبارهم لعدم اهتمامهم بذلك ولعدم انتشار الكتابة والقراءة عندهم، ولكنهم كانوا يتناقلون أخبارهم عن طريق المشافهة يتذاكرونها فيما بينهم، أو تأتي أخبارهم في قصائدهم التي يحفظونها، فكانت هذه القصائد بمثابة الوعاء الذي حفظ تراث العرب فقد قيل: «الشعر ديوان العرب»[1].

- وبعد الإسلام انتشرت القراءة والكتابة على نطاق واسع بين المسلمين، وظهرت العلوم المختلفة، وتطورت بسرعة كبيرة وخاصة في القرن الثاني الهجري وما يليه من القرون.

وتاريخ المسلمين أحد هذه العلوم التي برزت في مقدمة العلوم الإسلامية بسبب ارتباطه بالحديث الشريف، حيث اعتنى المسلمون بتدوين سيرة الرسول ﷺ، والسابقين الأولين إلى الإسلام، وغزواتهم وانتشار الإسلام، والفتوحات الإسلامية.

وعندما ظهر التدوين وخاصة في الحديث الشريف والسيرة النبوية وسيرة أصحابه رضي الله عنهم اهتم المدونون برفع رواياتهم إلى مصادرها للتأكد من صحة هذه الروايات وللتمييز بين درجاتها، وهو ما يعرف في وقتنا الحاضر بتوثيق المعلومات، وما عرف في الإسلام بالإسناد، أي إسناد الرواية إلى صاحبها بذكر اسمه أثناء عرض الرواية عنه، وهؤلاء هم الواسطة في نقل الروايات والذين عرفوا فيما بعد بالإخباريين، ثم تطور تدوين التاريخ إلى نقد

(١) السيوطي، المزهر، ج٢/ ٤٧٠.

الروايات والبحث عن أسباب القوة والضعف فيها، ثم تخصص المهتمون بنقل الروايات فمنهم من اهتم بالأخبار، ومنهم من اهتم بالأنساب، ومنهم من اهتم بالتراجم والطبقات والوفيات.

وقد ذكر أن أول من اهتم بتدوين التاريخ والأخبار الخليفة معاوية بن أبي سفيان، فقد استدعى رجلاً كان مقيماً بحضرموت يدعى أمد بن أبد الحضرمي وآخر يدعى عبيد بن شرية كان مقيماً في اليمن، فدونا لمعاوية بن أبي سفيان أخبار العرب[1].

ومن أوائل الإخباريين والمدونين كعب الأحبار (٧٢ق. هـ-٣٢هـ) من كبار علماء اليهود، أسلم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وخرج إلى الشام وسكن حمص ومات فيها. ووهب بن منبه (٣٤-١١٤هـ) وعروة بن الزبير (٢٢-٩٣هـ) وابنه هشام (٦١-١٤٦هـ). ومحمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري (٥١-١٢٤هـ)، وإبان بن عثمان بن عفان (ت١٠٥هـ) وشرحبيل بن سعد الخطمي المدني (ت١٢٣هـ) وموسى بن عقبة بن عياش الأسدي (ت١٤١هـ) ومحمد ابن إسحاق بن يسار المطلبي (ت١٥١هـ) وأبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي الغامدي (ت١٥٧هـ) وسيف بن عمر الأسدي التميمي (ت٢٠٠هـ) وهؤلاء هم أوائل المهتمين بالأخبار من طبقة القرنين الأول والثاني الهجريين، ثم تلا هؤلاء طبقات متتالية من المؤرخين، فأخذ اللاحقون عن السابقين وأضافوا إلى ما سبق ما استجد من أحداث عاصروها، وهذه الطبقات هي كما يلي:

(١) كرد علي، الإسلام والحضارة العربية ج١/ ١٧١ وما بعدها.

طبقة القرن الثالث الهجري: حيث اعتمد أصحاب هذه الطبقة على الأوائل الذين دونوا السيرة ونقلوا الأخبار فأخذوا مروياتهم، وهؤلاء مثل: الواقدي (ت/ ٢٠٦ أو ٢٠٧هـ/ ٨٢١م أو ٨٢٣م) وابن الكلبي (ت٢٠٤هـ/ ٨١٩ م) أو (٢٠٦هـ/ ٨٢٢م) وابن هشام (ت٢١٣هـ/ ٨٢٨م) أو (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) وابن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)وابن عبدالحكم (ت٢٥٧هـ/ ٨٧١م) وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ/ ٨١٩م) والبلاذري (ت٢٧٩/ هـ ٨٩٢م) والدينوري (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) واليعقوبي (٢٨٣هـ/ ٨٩٨م) والنوبختي (ت الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)[١]

ثم توسع التاريخ في القرن الرابع الهجري: بعدما كثر المؤرخون لكثرة الأخبار وتوسع الفتوحات وتنوع فنون التاريخ ومن مؤرخي هذا القرن الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م) وابن البطريق (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م) وابن عبد ربه (ت٣٢٧هـ/ ٩٣٩م) والصولي (ت٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) وابن قدامة توفي حوالي (٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) والمسعودي (ت٣٤٦/ ٩٥٦م) والكندي (ت٣٥٠هـ/ ٩٦١) والأصفهاني (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) والخوارزمي -أبو عبدالله- (ت حوالي ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م) وابن القوطية (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) وابن النديم (ت٣٨٣هـ/ ٩٩٣م)[٢].

ثم توسعت هذه الطبقة بتوسع العلوم وانتشار التدوين في القرن الخامس الهجري: فظهر مؤرخون من أهل هذا القرن ومنهم: ابن حزم (ت حوالي ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) وابن مسكويه أو مسكويه (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) والعتبي

(١) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢١٧.
(٢) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢١٧.

(ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) والبغدادي (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) والثعالبي (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) والصابي (ت٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) والماوردي (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) والقضاعي (ت٤٥٥هـ/ ١٠٦٢م) ويحيى بن سعيد (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) وابن صاعد (ت٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م) والخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) وابن حيان (ت٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) والبيهقي (ت٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) ونظام الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)[١].

أما طبقة القرن السادس الهجري: فمن مؤرخيهم: أسامة بن منقذ (ت٥١٢هـ/ ١١١٨م) وابن منجب الصيرفي (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) والشهرستاني (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) وابن القلانسي (ت٥٥٥/ ١١٦٠م) وابن عساكر علي (ت ٥٧٣/ ١١٧٦م) وابن بشكوال (ت٥٧٨هـ/ ١١٨٣م) وابن الجوزي فرج (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) وعماد الدين (ت ٥٩٨/ ١٢٠١م)[٢].

وطبقة القرن السابع الهجري: منهم: ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) وسبط ابن الجوزي (ت٦٤٤هـ/ ١٢٤٦) والقفطي (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) وأبو شامة (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) وابن أبي أصيبعه (ت٦٦٧هـ/ ١٢٧٠م) وابن العميد (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) وابن ميسر (ت٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م) وابن خلكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) والجويني (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) والقزويني (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) وابن سعيد المغربي (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) وابن العبري (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) وابن واصل (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) وابن الطقطقي (ت في

(١) نفس المصدر/ ٢١٨.

(٢) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢١٨.

القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) وابن عذارى (توفي في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي)[1].

وأما طبقة القرن الثامن الهجري: فمنهم: رشيد الدين (ت٦١٨هـ/ ١٣١٨م) وأبو الفداء (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) والنويري (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) وابن الوردي (ت٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م) والذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) والكتبي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) وابن أيبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) والصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) ولسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) وابن حبيب (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)[2].

وطبقة القرن التاسع الهجري: منهم: ابن الفرات (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) وابن دقماق (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٧م) والقلقشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) والمقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) وابن حجر العسقلاني (ت٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) والعيني (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) وأبو المحاسن (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) وابن إياس (ت في القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي)[3].

وطبقة القرن العاشر الهجري: السخاوي (ت٩٠٢/ ١٤٩٧م) والسيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)[4].

وطبقة القرن الحادي عشر الهجري: الشيخ أبو الفضل (ت١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) والمقري (ت١٠٤١هـ/ ١٦٣٣م) وحاجي خليفة (ت١٠٦٧/ ١٦٥٧م)[5]

---

(١) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢١٨.
(٢) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢١٨-٢١٩.
(٣) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢١٩.
(٤) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢١٩.
(٥) عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢١٩.

خامساً: اللغة العربية:

وتنقسم إلى قسمين رئيسين هما:

الأدب العربي + النحو.

١ - الأدب العربي:

- اللغة العربية وآدابها قبلَ الإسلام:

تعد اللغة العربية أفضل اللغات وأكثرها انتشاراً في العالم؛ لأنها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف واللغة التي كتب بها تراث المسلمين بعلومه ونظمه وفنونه المختلفة فملأت مخطوطاته خزائن الأمم.

وقبل الإسلام كانت اللغة العربية لغةً محلية يتكلم بها العرب في الجزيرة العربية وما حولها من القبائل العربية في العراق وبلاد الشام، وكانت هذه اللغة منتشرة في الجزيرة العربية بعدة لهجات منها: لهجة قريش وهي أشهرها وأوسعها انتشاراً، ولهجة تميم، أسد، قضاعة، طيء، هذيل وربيعة وعامر وقيس.

وقد تعودت القبائل العربية أن تلتقي سنوياً في أشهر الحج، في أسواق عكاظ وذي المجنة وذي المجاز، مَا بين مكة والطائف، تحت إشراف قريش، فيتبايعون ويتصالحون ويعقدون الأحلاف ويسمعون قصائدهم الشعرية بما فيها من فخر وهجاء ووصف ومديح ورثاء، ثم يحجون إلى بيت الله الحرام ويعودون بعد ذلك إلى منازلهم[1].

---

(١) اليعقوبي، تاريخه ج١/ ٢٧٧.
ابن عبدربه الأندلسي، العقد الفريد ج١/ ١٣٥.
السيوطي، المزهر/ ١٠٤.
شوقي ضيف، العصر الجاهلي/ ١٣١.

والشعر العربي صنعة العرب وديوان علومهم ووقائعهم وأنسابهم ورثائهم وغزلهم ومدحهم ومفاخرهم. وقد قال العرب شعرهم دون، إعداد مسبق، وإنما نظم شعراؤهم شعرهم على السليقة، وحفظوه وتناقلوه فيما بينهم عن طريق المشافهة ولم يعتمدوا على التدوين في أكثر الأحيان، ومن أشهر شعرائهم في الجاهلية عشرة أطلق على قصائدهم المعلقات العشرة (والبعض يعتبرها سبع معلقات) لشدة تعلق القلوب بها، أو كما قيل لأن العرب علقوها في جوف الكعبة لأهميتها عندهم.

وأصحاب هذه المعلقات العشرة هم، امرؤ القيس بن حجر الكندي (ت٥٤٠م) ومطلع معلقته:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقط اللِّوى بين الدخولِ فَحَوْمَلِ

وزهير بن أبي سلمى (ت ٦٢٧م) ومطلع معلقته:

أمِنْ أُمِّ أوفَى دِمْنَةٌ لم تكلَّمِ
بحومانةِ الدراجِ فالمتثلمِ

وطرفة بن العبد البكري (ت حوالي ٥٧٣م) ومطلع معلقته:

لخَوْلَةَ أطلالٌ ببرقةِ ثَهْمَدِ
تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ

ولبيد بن ربيعة بن مالك العامري من هوازن قيس وهو من الشعراء المخضرمين (جاهلي وإسلامي) (ت ٤١هـ). ومطلع معلقته:

عفت الديارُ محلَّها فمقامُها

بمنىً تأبد غولُها فرجامُها

وعنترة بن شداد العبسي (ت ٦١٥م) ومطلع معلقته:

هل غادرَ الشعراءُ من متردمِ

أمْ هلْ عَرَفْتِ الدارَ بعد توهُّمِ

وعمرو بن كلثوم التغلبي (توفي أواخر القرن الخامس الميلادي) ومطلع معلقته:

ألا هبي بِصَحْنِك فاصبحينا

ولا تُبقي خمورَ الأندَرِينا

والحارث بن حلزة اليشكري البكري الوائلي (ت ٦٠٤م). ومطلع مُعلقته:

آذَنَتْنَا ببينِها أسماءُ

رُب ثاوٍ يُمَلُ منه الثّواءُ

والنابغة الذبياني زياد بن معاوية بن ضباب (مات قبل الإسلام بحوالي ٥٠ سنة) ومطلع معلقته:

يا دارَ ميةَ بالعلياءِ فالسنَدِ

أقوتُ وطال عليها سالفُ الأبدِ

والأعشى الأكبر أبو بصير ميمون بن قيس البكري (ومات في حياة الرسول ﷺ ولم يدخل الإسلام) ومطلع معلقته:

ودعْ هـريرةَ إن الـركبَ مـــــرتَحِـلُ
وهلْ تـطيق وَداعـــاً أيهـــا الـرجلُ

وعبيد بن الأبرص الأسدي (ت٥٥٥م) ومطلع معلقته:

أقْـــفَـــرَ مـن أهلِـه ملحـــوبُ
فـــالقُطَـبِـيـــات[1] فـــالـذنوبُ[2]

ولم يكن الشعر وحده مادة العرب في لغتهم وإنما قالوا الأمثال في مناسبات معينة مثل: وافق شن طبقه، يداك أوكتا وفوك نفخ، إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً، إنك لا تجني من الشوك العنب، رمتني بدائها وانسلت، ربّ كلمة تقول لصاحبها دعني، أحشفاً وسوءكيلة.

ومارس العرب أيضاً قول الحكم في أحوال معينة نتيجة خبرة وتجربة ومنها: الخطأ زاد العجول، من سلك الجدد أمن العثار، عي صامت خير من عي ناطق، مصارع الرجال تحت بروق الطمع، كلم اللسان أنكى من كلم السنان، رب عجلة تهب ريثاً، العتاب قبل العقاب، أول الحزم المشورة، أنجز حر ما وعد، من ضاق صدره اتسع لسانه، من مأمنه يؤتى الحذِر.

ومارس العرب الخطب، وهي مظهر من مظاهر الفصاحة والبلاغة فيها حجة وإقناع، ومن أشهر خطباء العرب: قس بن ساعدة الإيادي (ت٦٠٠م)،

(١) القطبيات: اسم موضع.
(٢) الذنوب، موضع آخر.
انظر هذه المعلقات العشرة: أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي/ ٣٣.

عمرو بن كلثوم التغلبي، أكثم بن صيفي، الحارث بن عباد البكري، قيس بن زهير العبسي، عمرو بن معد يكرب الزبيدي (ت٦٤٣م).

وهناك الوصايا، من الأب لبنيه أو الأم لابنتها أو ابنها، توجههم بتجاربها وتمنحهم خبرتها.

- اللغة العربية وآدابها بعد الإسلام:

وبعد الإسلام أطلق القرآن الكريم حرية التفكير والتعبير وطلب العلم ورفع من منزلة العلماء قال تعالى: ﴿ ... **يرفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا منكم والذينَ أُوتُوا العلمَ دَرَجَاتٍ والله بما تعملون خبير** ﴾[1].

وحث الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث على طلب العلم، فانتشرت القراءَة والكتابة بين المسلمين في المدينة المنورة ليتمكنوا من تلاوة القرآن الكريم وحفظه وفهم أحكام الإسلام.

وقد تطورت اللغة العربية بعد الإسلام بما يتناسب مع الحياة الجديدة، فتطورت حروف اللغة العربية لكثرة استخدامها في الكتابة وانتشار اللغة العربية على نطاق واسع جنباً إلى جنب مع انتشار الإسلام بين الأعاجم، وأصبحت بذلك لغةً عالمية بدلاً من كونها لغة محلية، وتطورت فنون الخطابة وبلاغة اللغة ومفرداتها لكثرة استخدامها في المساجد وساحات القتال، كما انتشرت المراسلات بين الخلفاء وقادة الفتح خارج الجزيرة العربية، وازدهرت الخطابة، فكان الرسول ﷺ خطيباً لتبليغ الإسلام، وخطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي عند توليهم الخلافة، وخطبوا في الجند قبل توديعهم إلى ساحات القتال خارج.

(١) سورة المجادلة/ الآية ١١.

وأما الرسائل في عهد الرسول ﷺ فقد خصصت للدعوة إلى الإسلام، فقد راسل الرسول ﷺ حكام عصره يدعوهم إلى الإسلام كمراسلاته مع نجاشي الحبشة وهرقل ملك الروم وكسرى ملك الفرس والمقوقس حاكم مصر والمنذر بن ساوى حاكم البحرين وغيرهم، وتطورت هذه المكاتبات في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم مثل مراسلات أبي بكر لقادته الذين أرسلهم لمحاربة المرتدين وقادته في فتوح العراق وبلاد الشام، وكذلك مراسلات الخليفة عمر لقادة فتوح العراق وفارس وبلاد الشام ومصر.

كما كان للوصايا في عهد الرسول ﷺ أثرها البالغ عند القادة الذين أرسلهم في الغزوات، كوصيته لقادة معركة مؤته، ووصيته لأسامة بن زيد عندما عينه قائداً لغزو الروم.

وأوصى الخليفة أبو بكر قادة فتوح الشام[1] وأوصى الخليفة عمر سعد بن أبي وقاص عندما ودعه قبل أن يتحرك بحملته إلى العراق[2] وأوصى الخليفة علي بن أبي طالب ابنه الحسن[3].

كما انتشرت الحِكَمُ في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، فقد ورد عن الخليفة أبي بكر قوله: صنائع المعروف تقي مصارع السوء. وقوله: الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله، وقوله: ثلاث من كن فيه كن عليه. البغي والنكث والمكر[4].

(١) انظر وصيته في ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٢٧٨ وما بعدها.
(٢) انظر وصيته في الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ٨٤.
(٣) أحمد حسن الزيات. تاريخ الأدب العربي/ ٢٠٣.
(٤) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي/ ٢٠٠.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: من كتم سره كان الخيار في يده. وقوله: مُرْ ذا القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. وقوله: أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي[1].

وعن علي رضي الله عنه قال: الناس أعداء ما جهلوا، وقوله: قيمة كل إنسان ما يحسن[2].

غير أن الشعر العربي خف كثيراً في فجر الإسلام لانشغال الناس في حفظ القرآن الكريم وتلاوته والجهاد في سبيل الله، ولم يمنع ذلك من ظهور بعض الشعراء في عهد الرسول ﷺ ومن هؤلاء: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة.

- **وفي العصر الأموي**، ظهر الموالي في المجتمع الإسلامي، وظهرت الفرق الإسلامية، وظهرت العصبية من جديد، واتخذ الأمويون من دمشق عاصمة لهم، فعاد الشعر العربي إلى الازدهار في الحجاز والعراق والشام، وانحاز كل شاعر إلى قبيلته أو فرقته يدافع عنها.

ومن هؤلاء الشعراء: الأخطل أبو مالك غياث بن غوث التغلبي النصراني (ت٩٣هـ) شاعر الأمويين ولسانهم في المدح والثناء عليهم، والفرزدق أبو فراس همام بن غالب التميمي (ت١١٠هـ) ذو الميول العلوية في تأييده لهم ضد الأمويين، أبو حرزة جرير بن عطية الخطفي التميمي (ت١١٠هـ) المعارض في شعره للفرزدق وبينهما مساجلات شعرية طويلة تسمى النقائض في التفاخر بالأنساب، والكميت بن زيد الأسدي شاعر العلويين، ومعاذ بن جوين الطائي، والطرماح بن حكيم، وقطري بن الفجاءة المازني شعراء الخوارج، كما ظهرت

(١) المصدر نفسه/ ٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه/ ٢٠٠.

الحاجة إلى الخطابة في صدر الإسلام في العصر الأموي، بما فيها من تهديد ووعيد أو ترغيب وتهذيب أو استنهاض الهمم بما تضمنت من اقتباس من آيات القرآن الكريم، ومن هذه الخطب المشهورة خطبة الحجاج في أهل الكوفة عندما جاءهم أميراً عليهم، وخطبة زياد ابن أبيه وخطبة طارق بن زياد في جيشه بعدما عبر إلى الأندلس يحثهم على القتال والصمود.

كما ازدهر عصر الكتّاب في العصر الأموي حيث الكتابة إلى عمال الدولة الإسلامية، ومن أشهر هؤلاء الكتاب: عبدالحميد الكاتب الذي كان كاتباً إلى الخليفة الأموي مروان بن محمد (آخر خلفاء الدولة الأموية وقتل على أيدي العباسيين سنة ١٣٢هـ).

- الآداب العربية في العصر العباسي:

وفي هذا العصر اتخذ العباسيون من العراق عواصم لهم وأهمها بغداد، فجاوروا الفرس، وخرجت آداب اللغة العربية عن حدودها المألوفة إلى ما يتلاءم مع الاختلاط بالفرس، وظهرت حركة التأليف والترجمة إلى العربية على نطاق واسع، وازدهرت اللغة العربية بأنواع الخط العربي وانتشارها بين الأعاجم، وظهر شعراء من نوع جديد مثل: بشار بن برد وأبو العتاهية والمتنبي والمعري وأبو نواس[١]. وظهرت الموشحات في مصر والمغرب والأندلس[٢].

وظهر الأدباء في التأليف ومن هؤلاء: عبدالله بن المقفع (ت١٤٢هـ) فارسي الأصل عربي النشأة، كان فصيحاً عليماً بأدب العرب والفرس، مترجماً بارعاً

(١) عبدالمنعم ماجد. تاريخ الحضارة العربية / ٢٠٢ وما بعدها.
(٢) عبدالمنعم ماجد. تاريخ الحضارة العربية الإسلامية/ ٢٠٤

ترجم كتاب كليلة ودمنة، وترجم كتباً لأرسطو، وألف كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير في الأخلاق، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان[1].

ومن الكتَّاب أيضاً: الجاحظ أبو عثمان بن عمرو (ت٢٥٥هـ) غزير العلم، قوي الحجة وبلاغة القول، كثير التصنيف، وله كتابات في الأخلاق والحيوان والنبات والاجتماع، ومن أشهر كتبه البيان والتبيين، والبخلاء، المحاسن والأضداد، ومن الكتَّاب، ابن العميد أبو الفضل محمد بن الحسين (ت٣٦٠هـ) فارسي الأصل عربي النشأة من تلامذة المتنبي، استوزره ركن الدولة بن بويه سنة ٣٥٢هـ.

ومنهم الصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) أبو القاسم إسماعيل فارسي الأصل استوزره مؤيد الدولة بن بويه، كثير المطالعة للكتب، ناقداً شاعراً، له من المؤلفات كتاب المحيط، وكتاب الإمالة، وكتاب الكشف عن مساوئ المتنبي.

ومنهم بديع الزمان الهمداني (ت٢٩٨هـ) فارسي الأصل استفاد من أدب الصاحب بن عباد، تفنن في ضروب الرسائل، فجمع بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيل، شاعر له مقامات جميلة، وهي عبارة عن حكايات تشتمل كل واحدة على حادثة تنتهي بعبرة أو عظة أو مُلْحَة.

ومن كتَّاب العصر العباسي الثاني الحريري (ت٥١٦هـ) محمد بن علي البصري، عربي من بني حرام، كان تاجراً يبيع الحرير فلقب لذلك، كان شغوفاً بالأدب، شاعراً كاتباً يشبه بديع الزمان الهمداني في كتابة المقامات والرسائل.

(١) نفس المصدر/ ٢٢٨.

ومن كتَّاب هذا العصر أيضاً القاضي الفاضل (ت ٥٩٥هـ) أبو علي عبدالرحيم البيساني من مدينة بيسان بفلسطين، استوزره صلاح الدين الأيوبي واستوزره بعد صلاح الدين العزيز بن صلاح الدين، ثم الأفضل بن صلاح الدين.

وأما بالنسبة إلى الشعر فقد بلغ أوجه في العصر العباسي فكثر الشعراء في العراق والشام والأندلس.

ومن شعراء العراق بشار بن برد (ت ١٦٧هـ) فارسي من سبي المهلب بن أبي صفرة، كان شعره في الغزل والتهتك فضربه الخليفة المهدي بالسياط حتى مات.

ومن شعراء العراق أيضاً أبو العتاهية (٢١١هـ) إسماعيل بن القاسم بن سويد كثير الشعر، ولد بالحجاز وانتقل إلى الكوفة فعاش فيها، ثم رحل إلى بغداد ورافق المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون ومات سنة ٢١١هـ.

ومن هؤلاء الشعراء أبو نواس (ت١٩٩هـ) الحسن بن هانئ الحكمي، كان خليعاً في الأدب وقول الشعر، خفيف الروح حاضر البديهه، نشأ بالبصرة فبغداد والتصق بهارون الرشيد والأمين من بعده[١].

وأما شعراء الشام فأشهرهم أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ) فصيحاً ويعد من فحول الشعراء[٢]. والبحتري، أبو عبادة الوليد بن عبدالله الطائي (ت ٢٨٤هـ)، عربي ولد بمنبج من قرى حلب غلبت عليه فصاحة العرب[٣].

(١) الزيات. تاريخ الادب العربي / ٢٧٢.
(٢) المصدر نفسه/ ٢٩٤.
(٣) المصدر نفسه/ ٢٩٤.

والمتنبي أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ) ولد بالكوفة، ادعى النبوة في الشام وافتتن بشعره كثير من الناس، اتصل بالحمدانيين بحلب فمدحهم ثم رحل إلى مصر ومدح كافور الإخشيدي ثم هجاه وعاد إلى بغداد ثم اتصل بعضد الدولة البويهي[١].

ومن شعراء الشام أبو فراس الحمداني أبو الحارث بن أبي العلاء (ت٣٥٧هـ) ابن عم سيف الدولة الحمداني زعيم الدولة الحمدانية، وكان أبو فراس الحمداني بجانب كونه شاعراً، كان فارساً أميراً من أمراء الحمدانيين.

وأبو العلاء المعري أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي (ت٤٤٩هـ)، كان أبوه عالماً فقيهاً نشأ ضريراً، تنقل في بلاد الشام والعراق يبحث عن فنون الأدب حتى صار مؤلفاً عالماً في الشعر.

٢- النحو:

تبين في الصفحات السابقة أن العرب لم يكونوا كلهم يتكلمون لهجة واحدة وإنما كانت لهجاتهم في النطق متعددة[٢]، غير أن تقارب النطق كان كبيراً بسبب التنقل واللقاءات بين العرب. وكانت لهجة قريش أعلى هذه اللهجات وأكثرها انتشاراً من سائر اللهجات؛ لعلو منزلتها بين القبائل وسيطرتها على مكة ملتقى العرب في مختلف الأيام والأشهر من كل عام[٣]. وقد امتاز العرب جميعاً

(١) الزيات. تاريخ الأدب العربي/ ٢٩٧.
(٢) السيوطي، المزهر ج١/ ١٩٤.
أحمد أمين، ضحى الإسلام ج٢/ ٢٤٤.
(٣) ابن جني، الخصائص ج٢/ ١١.

بالفصاحة وبلاغة القول، ولم يتعودوا على ضوابط وقواعد تقوِّم ألسنتهم فهي ملكة خاصة لهم[1].

ونزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ بلغة العرب بما يناسب بلاغتهم وفصاحتهم، ومقدرتهم على الحفظ، غير أنه معجز بالنسبة لهم، فلم يستطيعوا الإتيان بمثله ولو بآية واحدة، لكنهم حفظوه تماماً كما نزل بلفظه الذي نزل على الرسول ﷺ، وإن لم يضعوا له ضوابط الشكل في حياة الرسول ﷺ، يقول الجزري«إن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف، جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة»[2].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم قد حفظوه عن الرسول ﷺ بلفظه وحركاته، ولو أنهم دونوه على الرقاع دون حركات ونقاط خوفاً من التزيد فيه، لأن العرب كانوا لا يعرفون التنقيط والحركات.

ثم انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، وأقبل الأعاجم على دين الله وحفظ القرآن الكريم وتلاوته، وتعلم اللغة العربية تبعاً لذلك، فاختلط العرب بالأعاجم، فتغيرت ملكة اللغة العربية على ألسنة العرب وظهر اللحن[3] في ألسنة الأعاجم في تلاوة القرآن الكريم، وخاف الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم من اختلاف القرآن الكريم على ألسنة الناس، سيما وأن معنى الآيات يختلف باختلاف النطق رفعاً أو نصباً أو جراً[4].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٥٤٦.

(٢) الجزري، النشر في القراءات العشر/ ٣٢-٣٣.

(٣) اللحن: إزالة الشيء عن جهته الصحيحة بزيادة أو نقصان.

(٤) ابن خلدون. المقدمة/ ٥٤٦.

المقدمات الأولى لعلم النحو والحاجة إليه:

بدأت الأخطاء تظهر في نطق اللغة العربية وكتابتها، ومن هذه الأخطاء التي ظهرت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن أبا موسى الأشعري أمر كاتبه أن يكتب إلى الخليفة عمر فكتب إليه «من أبو موسى الأشعري» والصحيح أن يكتب «من أبي موسى الأشعري» فكتب إليه الخليفة عمر «سلام عليك، أما بعد، فاضرب كاتبك سوطاً واحداً وأخِّر عطاءه سنة».

وسمع أعرابي مؤذناً يقول: «أشهد أن محمداً رسولَ الله» وكان ينبغي أن يقول «رسولُ الله»، وروي أن الخليفة عمر مر على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا: «نحن قوم متعلمين». فساءه ذلك، وكان ينبغي عليهم أن يقولوا: «نحن قوم متعلمون».

وقدم أعرابي إلى المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه فأقرأه رجل القرآن ليعلمه فقرأ عليه: «إن اللهَ بريء من المشركين ورسوله» والصحيح أن يضم اللام بكلمة «ورسولُه» فقال الأعرابي: إذا كان الله يبرأ منَ رسوله فأنا بريء منه أيضاً فسمع الخليفة عمر بذلك فاستدعاه وصحح قراءته.

وروي أن علياً رضي الله عنه في خلافته سمع أعرابياً يقرأ القرآن «لا يأكله إلا الخاطئين» والصحيح أن يقرأ الآية «لا يأكُلُه إلا الخاطئُون»[1] فاستشعر الخليفة ضرورة وضع ضوابط لقراءة القرآن الكريم، ثم أخذ هذه الفكرة فيما بعد أبو الأسود الدؤلي مؤسس علم النحو كما يقول المؤرخون[2].

---

(١) سورة الحاقة / الآية ٣٧.

(٢) ابن قتيبة، المعارف / ١٩٢. ابن النديم، الفهرست/ ٦١. القفطي، إنباه الرواه ج١ / ١٤. السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ١٢١.

وقد روي أن أبا الأسود الدؤلي قالت له ابنته يوماً: ما أشدُّ الحرَّ. وهي تريد التعجب وليس الاستفهام عن أشد أنواع الحر، فأجابها «القيظُ» وهو يظنها تسأل. وعندما علم مقصودها أنها تريد التعجب قال لها يا بنية قولي: ما أشدَّ الحرَّ[1].

التعريف بأبي الأسود الدؤلي:

هو ظالم بن عمرو الدؤلي الكناني، من التابعين سكن البصرة، ووليها في خلافة عمر رضي الله عنه، كان متشيعاً، فصيحاً فقيهاً، سديد الرأي ذا ذوق سليم، مرهف الحس، أول من دون علم النحو وأول من نقط المصحف، عارفاً بكلام العرب، شاعراً توفي سنة ٦٧هـ وقيل سنة ٦٩هـ[2].

مراحل تطور علم النحو:

لم يظهر علم النحو بهذا الشكل الذي نراه مرة واحدة، وإنما تدرج عبر مراحل في العصور الإسلامية المتتابعة حتى وصل إلى ما نراه من علم مستقل كامل النضج.

المرحلة الأولى: طور الوضع والتكوين في القرن الأول الهجري:

قيل: إن أبا الأسود الدؤلي استلهم فكرة وضعه من علي بن أبي طالب قبل سنة ٤٠[3] عندما رأى كثرة الأخطاء في تلاوة القرآن الكريم وغير ذلك على ألسنة الناس بعد اختلاطهم بالأعاجم، فقال علي لأبي الأسود الدؤلي: انح لنا نحواً. فسمي هذا العلم بعلم النحو لذلك[4].

---

(١) عبدالحميد السيد طلب. تاريخ النحو وأصوله/ ٣٦.

(٢) القفطي، إنباه الرواه/ ١٣، السيوطي، المزهر ج٢/ ٢٤٦-.

(٣) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء/ ٩-١٠.

(٤) القفطي، إنباه الرواه ج١/ ٤.
السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ١٢١.

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان كان زياد بن أبيه والياً على البصرة فأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع علم النحو فاستعفاه، ثم عاد وراجع نفسه فوضع قواعد علم النحو عندما رأى اللحن منتشراً بين الناس.[1]

وأول ما قام به أبو الأسود الدؤلي هو ضبط قراءة القرآن الكريم، فأتى بكاتب فقال له أبو الأسود الدؤلي وأنا أقرأ القرأن إذا رأيتني ضممتُ فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف (وهي بمثابة الضمة) وإذا رأيتني فتحت فمي فضع نقطة فوق الحرف (وهي بمثابة الفتحة فيما بعد) وإذا رأيتني كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف (وهي بمثابة الكسرة فيما بعد)، ونقطتين للتنوين[2]، فكان هذا التنقيط وهو الذي بمثابة الحركات هو أول ضبطٍ للقرآن الكريم.

وفي خلافة عبدالملك بن مروان قام تلامذة أبي الأسود الدؤلي يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم باستبدال أشكال أخرى غير النقاط للدلالة على الحركات وهي المربع أو الدائرة □ ○ وجعل النقاط للتمييز بين الحروف، وهو المعروف بالإعجام[3]، وهذه المرحلة الأولى المعروفة بمرحلة الوضع والتكوين للنحو قد ظهرت في البصرة.

المرحلة الثانية: مرحلة التدوين النحوي في البصرة في القرن الثاني الهجري.

وفي هذه المرحلة ظهرت مدرسة البصرة النحوية وتبلورت فيها المفردات النحوية كتسمية المؤنث والمذكر والضمائر والأسماء ومباحث الصرف، وتطور

(١) القفطي، إنباه الرواه ج١/ ٥-٦.
(٢) ابن النديم، الفهرست/ ٦٠.
القفطي، إنباه الرواه ج١/ ٥-٦.
الداني، المحكم في نقط المصاحف/ ٢٢.
أحمد أمين، ضحى الإسلام ج٢/ ٢٨٦.
(٣) ابن النديم، الفهرست/ ٦٢.

علم النحو إلى الشرح والتحليل[1]، وظهر علماء النحو في القرن الثاني الهجري وفي مقدمتهم عبدالله بن أبي إسحاق (ت١١٧هـ) وعيسى بن عمر (ت١٤٩هـ) وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) ومن أبرز علماء النحو في القرن الثاني الهجري الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) وتلميذه سيبويه (ت١٧٧هـ) ويونس بن حبيب (ت١٨٢هـ).

أما الخليل بن أحمد فهو المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة، إذ وضع قواعد جديدة لضبط اللغة بعد أن طاف الجزيرة العربية واستمع لأحاديث الناس، ووضع الحركات الإعرابية، الفتحة والضمة والكسرة بدلاً من العلامات التي وضعها أبو الأسود الدؤلي وتلامذته، ووضع السكون والشدة والهمزة والمدة، كما وضع لأول مرة علم العروض، وكتب كتابه العين في اللغة، وهو أقدم معجم في اللغة العربية.

وواصل تلميذه شيخ النحاة سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، ولد بشيراز ورحل إلى البصرة وسكن بها وتلقى فيها علوم الحديث والفقه والنحو على أساتذته ومنهم: حماد بن سلمة بن دينار البصري، وعيسى بن عمر الثقفي، ويونس بن حبيب الضبي، وزيد بن أوس الأنصاري، واصل تطوير علم النحو الذي تلقاه على يد أستاذه الخليل بن أحمد حتى وصل إلى مرحلة النمو والارتقاء.

وفي هذه المرحلة انتقل علم النحو من البصرة إلى الكوفة وظهر علماء مدرسة الكوفة الذين أخذوا علم النحو عن علماء البصرة ومنهم: المفضل الضبي ابن محمد بن يعلى بن عامر من بني ثعلبة (ت١٧٠ هـ)[2]، وأبو جعفر الرؤاسي

(١) نفس المصدر/ ٦٢.

(٢) ابن النديم. الفهرست/ ١٠٢.

محمد بن أبي سارة وهو من معاصري الخليل بن أحمد وأول من نقل علم النحو إلى الكوفة[1] ومن النحويين في الكوفة: الكسائي علي بن حمزة بن عبدالله بن عثمان، (ت١٨٩هـ) حافظاً قارئاً ضابطاً لكلام الله، تتلمذ على الخليل بن أحمد والرؤاسي، ومن تلاميذه الفراء وهشام الضرير، انتدبه الخليفة هارون الرشيد لتأديب ولديه الأمين والمأمون وكان مقرباً عند الخليفة الرشيد ومات وهو مصاحب له في رحلته إلى الري.

ومن علماء نحو الكوفة أيضاً الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منصور الديلمي (ت١٨٧هـ) تلقى علم النحو في البصرة والكوفة واستقر فيها[2].

- الطور الثالث: بصري كوفي، وهو طور النضج والكمال في القرن الثالث الهجري:

وهي المرحلة التي اشتركت فيها مدرستا البصرة والكوفة في تطوير علم النحو.

ومن علماء هذا الزمن: الأصمعي عبدالملك بن قريب الباهلي (ت٢١٣هـ) ولد بالبصرة وكانت له منزلة عالية عند الخليفة هارون الرشيد يتصدر المجالس عنده بالرغم من قبح وجهه، واسع الحفظ لأشعار العرب عالماً بالنحو تجرى مناظرات نحوية بينه وبين سيبويه[3]، ومن علماء هذه المرحلة أيضاً أبوالحسن الأخفش المجاشعي (الأوسط) سعيد بن مسعده (ت٢١٥هـ) فارسي الأصل

(١) نفس المصدر/ ٩٦.
(٢) ابن النديم. الفهرست/ ٩٧-٩٨.
(٣) ابن النديم، الفهرست/ ٨٢.

مولى لبني مجاشع، له مؤلفات في النحو وغيرها منها: كتاب المقاييس في النحو، وكتاب الاشتقاق، كتاب العروض، كتاب القوافي، كتاب تفسير معاني القرآن الكريم[1].

الطور الرابع: طور الترجيح والبسط في القرن الرابع الهجري وما يليه من القرون التالية:

وقد اشترك في تطوير علم النحو في هذه المرحلة المدارس النحوية المختلفة في البصرة والكوفة وبغداد، ثم انتقل علم النحو إلى بلاد الشام ومصر والأندلس، وظهر علماء جدد للنحو في هذه البلاد من أشهرهم: السيرافي أبو سعيد الحسن بن عبدالله (ت ٣٦٨هـ) تنقل في البلدان إلى أن استقر ببغداد ومات فيها.

ومنهم ابن جني أبو الفتح عثمان مملوك رومي ولد بالموصل وتلقى العلم فيها وتوفي ببغداد سنة ٣٩٢هـ.

والزمخشري أبو القاسم محمد بن عمر جار الله ولد بزمخشر بخوارزم وتوفي فيها سنة ٥٣٨هـ، وابن بري من القدس بفلسطين أبو محمد عبدالله بن بري (ت٥٨٢هـ)، والسخاوي أبو الحسن علي علم الدين بن محمد (ت بدمشق سنة ٦٤٣هـ).

ومن علماء النحو في الأندلس جودي أبو عثمان النحوي المغربي (ت١٩٨هـ) ومحمد بن يحيى من أهل طليطلة توفي بقرطبة (٣٥٨هـ) والزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن بإشبيلية (ت بقرطبه سنة ٣٧٩هـ).

---

(١) نفس المصدر/ ٧٧-٧٨.

أهم المصادر اللغوية لعلم النحو:

١- **القرآن الكريم**: الذي نزل بلسان عربي مبين، وهو أصدق مصدر على الإطلاق، فقد طبق علماء النحو عليه قواعدهم ومقاييسهم.

٢- **لغة الأعراب**: من القبائل البدوية مثل: قيس وتميم وأسد وهذيل وكنانة فقد جمع علماء النحو من هذه القبائل الألفاظ ولم يأخذوا عن القبائل العربية الأخرى التي خالطت غير العرب لفساد لهجاتها[1].

٣- **الشعر العربي**: وخاصة الشعر الجاهلي وصدر الإسلام.

٤- **الأمثال العربية**: وهي التي قيلت لحادثة أو قصة ثم انتشرت على ألسنة العامة مثل قولهم: في الصيف ضيعتِ اللبن، رجع بخفي حنين.

(١) السيوطي. المزهر ج١/ ١٢٨.

obeikandl.com

العلـوم الإســلامية العقليــة

أولاً: الطب:

كانت حياة العرب قبل الإسلام تقوم على الترحال والاعتماد على الماشية والبحث عن العشب والماء وإن كانت لهم مدن على شواطئ البحار وأماكن أخرى، ولكنها قليلة ومتباعدة.

وكانت وسائل العلاج عند العرب تقوم على الشعوذة والسحر والحمية والفصد والحجامة (الكي) والاعتماد على الأعشاب وشرب العسل، وهي أساليب بدائية يعتمد بعضها على التجربة، ويعتمد البعض الآخر على الكهانة[1] لقلة معارف العرب الدينية وانتشار الخرافات بينهم وتأثير عبادة الأصنام في نفوسهم وعدم معرفتهم لخالقهم وحق الله عليهم.[2]

وقد عاصر النبي محمد ﷺ وهو بمكة أطباء من العرب مثل: الحارث بن كلدة الثقفي وهو من أهل الطائف تعلم الطب بفارس وتنقل في أنحاء الجزيرة العربية ومات في خلافة معاوية بن أبي سفيان[3] وتعلم ابنه النضر بن الحارث ابن كلدة الثقفي منه الطب وهو ابن خالة النبي محمد ﷺ، وقد سافر مثل أبيه وطلب علم الطب، كما عاصر النبي ﷺ ابن أبي رمثة التميمي[4] وبعد نبوة محمد ﷺ حث

(١) عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم/ ٧٨.
فتحية النبراوي، تاريخ النظم / ١٨٢.
(٢) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين/ ١١٣.
(٣) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء/ ٦١.
ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء / ١٤٥.
عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم/ ٧٨
(٤) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء/ ٥٧.
ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء/ ١٥٣.

النبي على النظافة والحمية، ورفع القرآن الكريم من أهمية التجربة والبحث العلمي وإمعان النظر واستخدام العقل والتجارب ووسائل الإثبات، فتلاشت مظاهر الشرك والخرافات، وتأصلت مظاهر البحث العلمي التي دعا إليها القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ.

ومن مظاهر توجيهاته ﷺ في مجال الصحة وعدم إرهاق الجسم والأعصاب والبعد عن العدوى يقول ﷺ عندما جاءه ثلاثة نفر يسألونه عن عبادتهم كأنهم تقالوها، فقال أحدهم: إنه يصوم الدهر فلا يفطر أبداً، وقال الآخر: إنه يقوم الليل فلا ينام أبداً، وقال الثالث: إنه لا يتزوج النساء حتى ينقطع للعبادة. فقال لهم الرسول ﷺ: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

وفي مجال العدوى يقول: «**إذا سمعتم بالطاعون بأرض قوم فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها**»(١) وقال: «**لا يوردن ممرض على مصح**»(٢) وقوله ﷺ: «**فِر من المجذوم كما تفر من الأسد**»(٣). وأوصى ﷺ بالمداواة بالعسل والاحتجام واستعمال الحبة السوداء وإراقة الجسم بالماء البارد عند الإصابة بالحمى(٤) وهي كلها ثبت جدواها وفائدتها. وفي مجال الاعتدال في الشيء يقول ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسِه**»(٥).

---

(١) صحيح مسلم، م٧/ ٢٨، م٧/ ٢٩-٣٠.
(٢) صحيح مسلم، م٧/ ٣١.
(٣) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٤/ ١٤٧.
(٤) عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم/ ٧٨.
(٥) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٤/ ١٧.

وفي مجال النظافة: عن أبي برزة رضي الله عنه قال: قلت: يانبي الله، علمني شيئاً أنتفع به. قال: اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[1].

وبعد الإسلام قفز عالم الطب في الدولة الإسلامية قفزة سريعةً، ولا شك أن ذلك يكمن في تعاليم الإسلام التي تدعو إلى العلم والبحث العلمي والمحافظة على سلامة البدن، والدعوة إلى البعد عن الشهوات والموبقات، وتنظيم حياة المسلم وتنظيم أوقاته، والاقتصاد في النفقة والأمر بالتداوي، والدعوة إلى عدم إرهاق الجسم وعدم إلقاء النفس في المهالك، وفي عهد الرسول ﷺ بنى المسلمون خيمة بجوار مسجد الرسول ﷺ كانت تجلس فيها امرأة من بني أسلم يقال لها رفيدة لمداواة الناس[2].

وما إن استقرت الدولة الإسلامية خارج الجزيرة العربية وأرسى خلفاؤها نظم الحكم حتى بدأت العواصم الإسلامية تشتغل في جمع العلوم المتوفرة لدى الأمم الماضية، وترجمتها إلى اللغة العربية للاستفادة منها، ولم تكن ترجمة حرفية بل تصحيحاً وإثباتاً بالزيادة أو النقصان حسب النتائج بعد إجراء التجارب عليها.

وقد استعان خلفاء بني أمية بالأطباء السريان النصارى واليونان من الذين تواجدوا في العراق وفارس وبلاد الشام ومصر، كما استفادوا مما وجدوه في مكتبات هذه البلاد مثل: مكتبة الإسكندرية، مكتبة جند يسابور، مكتبة نصيبين، مكتبة أنطاكية.

---

(١) صحيح مسلم م٨/ ٣٤.

(٢) عبدالله حجازي، لمحات في تاريخ العلوم الكونية عند المسلمين/ ١٩٢.

وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان طبيباً له يدعى ابن أثال، واتخذ مروان بن الحكم طبيباً له يدعى ماسرجويه، واتخذ عمر بن عبدالعزيز طبيباً له يدعى عبدالملك بن أبجر الكناني[١].

ومنع عبدالملك بن مروان المجذومين من الخروج إلى الناس، وأجرى عليهم أرزاقاً[٢]، وأقام الوليد بن عبدالملك أول مستشفى إسلامي بدمشق عام ٨٨هـ[٣].

وفي العصر العباسي ارتقى علم الطب كثيراً بسبب اهتمام الخلفاء بترجمة العلوم، فظهرت عائلات لاقت رعاية واهتماماً وتشجيعاً لترجمة كتب الطب مثل: عائلة بختيشوع الطبيب ومنهم: جورجيس، ومنهم: بختيشوع وابنه جبريل حيث استدعى أبو جعفر المنصور جدهم جورجيس لتطبيبه[٤]، ومن المترجمين حنين بن إسحاق وابنه إسحاق وابن أخته حبيش، وثابت بن قرة، وابنه سنان، وبدأت تظهر مؤلفات المسلمين في الطب منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين، واهتم خلفاء العصر العباسي الأول بفتح المستشفيات في المدن والقرى والبوادي؛ ففتح أول مستشفى ببغداد في خلافة هارون الرشيد[٥]، وزادت المستشفيات في عهده حتى بلغت خمسةً وثلاثين مستشفى تداوي الناس مجاناً[٦]. وامتدت الخدمات الطبية المجانية إلى القرى، فكان الأطباء يطوفون على القرى والبوادي والسجون للكشف المجاني وتوزيع الأدوية على الناس[٧].

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء/ ١٥٣.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٦/ ٤٣٧.
(٣) عبدالحليم منتصر، تاريخ العلم/ ٧٩.
(٤) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء/ ٦٣-٦٤.
ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء/ ١٦٣.
(٥) مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية/ ٥٤.
(٦) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية/ ١١٦.
(٧) مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية / ٥٤.

ثم اهتم حكام الإمارات والدول الإسلامية الأخرى بالمستشفيات كالفاطميين بمصر، والنوريين والأيوبيين والمماليك في بلاد الشام، وفتحوا المدارس الطبية والمكتبات الملحقة بها لتعليم الطب[1].

وفي القرن الثالث الهجري: ظهرت مواهب علماء المسلمين في الطب في معرفة أنواع الأمراض وتشخيصها تشخيصاً دقيقاً وتحديد علاجها ومعرفة الأمراض المعدية منها، ومعرفة أمراض النساء وإجراء العمليات الجراحية، كما عرفوا الأمراض الوراثية والتحمية والتخدير وخياطة الجروح، وجس النبض وتحليل البول ودراسة أحوال المريض من حيث عاداته ومناخ بلده لتشخيص مرضه.

وبناء على ذلك بنيت مستشفيات متخصصة للأمراض، ومنها أمراض للرجال وأخرى للنساء وأخرى للأطفال، وعرفوا العزل خوفاً من العدوى[2]، ومنها المستشفيات الثابته، وأخرى متنقله تنتقل مع الجيوش على الجمال ومعها أمتعتها من الأدوية والأدوات الأخرى اللازمة[3].

ولكثرة الأطباء المسلمين كانت تجرى لهم اختبارات وتعطى لهم شهادات تسمح لهم بممارسة مهنة الطب[4].

هذا في الوقت الذي كانت فيه أوربا لا تعرف شيئاً عن الطب خوفاً من تعاليم الكنيسة التي كانت تحرم تعاطيه تحريماً قاطعاً، إلى أن اختلط نصارى الغرب

---

(١) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية/ ١٢٨-
محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام/ ١٤٥.
مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية / ٥٤.
(٢) زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب/ ٢٢٥-
(٣) عبدالله حجازي، لمحات في تاريخ العلوم الكونية عند المسلمين.
(٤) أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٣٥١.
عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية/ ١١٨.

بالمسلمين من خلال الحروب الصليبية منذ أواخر القرن الخامس الهجري فاطَّلعوا على معارف المسلمين في الطب، ورأوا المستشفيات الإسلامية، واطَّلعوا على كتب الطب فقاموا بترجمتها وقلَّدوا المسلمين بعدما عادت الحملات الصليبية إلى بلادها[1].

ومن أشهر الأطباء المسلمين.

١- أبو بكر الرازي (Rhases) كما هو اسمه في بلاد الغرب[2] وهو محمد بن زكريا (ت٣٢٠هـ٩٣٢م)، ولد في الري بخراسان، وهاجر إلى بغداد عاصمة الدنيا في ذلك الوقت فأقام فيها[3].

ابتدأ حياته العلمية بالأدوية وتركيبها وعلاقتها بعلاج الأمراض معتمداً على التجارب والمتابعة، فذاع صيته حتى لقب أبو قراط العرب، (جالينوس العرب، أبو الطب العربي) وقد عرف الرازي كثيراً من الأمراض ووصف لها العلاج، وحدد أعراضها ومنها: مرض الحصبة، والجدري. وأمراض الأطفال. وقال: إنه يظهر قبل مرض الجدري أعراض له، مثل: الحمى ووجع في الظهر وأكلان في الأنف وقشعريرة أثناء النوم، واحتقان الوجه، وحمرة حادة على الوجه، وألم في الحلق، وسعال وجفاف وصداع[4].

كما مارس التشريح وعرف أجزاء الجسم، وهو أول مبتكر لخياطة الجروح من أمعاء الحيوانات، وهو أول من عرف الأمراض الوراثية.

---

(١) ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء/ ٣٠٢، ٣٦٥، الدفاع، الموجز في التراث/ ٢٦-٢٧.
زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب/ ٢١٦ وما بعدها.
مونتجمري واط، فضل الإسلام على الحضارة الأوربية/ ٩٠-٩٣.

(٢) هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب/ ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه/ ٢٤٤.

(٤) جوستاف لوبون، حضارة العرب/ ٥١٧.

وقد كلفه الخليفة المعتضد بالله بن الموفق العباسي (٢٧٩-٢٨٩هـ) ببناء مستشفى ببغداد، فاختار له موقعاً مناسباً بعد إجراء تجارب عليه، فأصبح أول مدير له[١]، فأقبل طلبة العلم على هذا المستشفى من كل مكان ليتلقوا العلم فيه[٢].

ومن مؤلفاته في الطب كتابه المشهور الحاوي، وهو موسوعة علمية، شخص فيه كثيراً من الأمراض وطرق علاجها، وفصل فيه أعضاء الجسم وطرق التغذية، وشرح فيه آراء اليونانيين والشاميين والهنود والفرس والعرب في الطب[٣] وله أيضاً كتاب المنصوري، الذي صنفه للمنصور بن إسماعيل بن خاقان صاحب خراسان[٤]، وله كتاب الفاخر في الطب، وكتاب طب الفقراء، وكتاب سر الطب وسر الأسرار والصنعة وكتب أخرى تزيد على مائة وثلاثين كتاباً، وثمان وعشرين رسالة[٥].

ولم تقتصر كتاباته ومؤلفاته على الطب فقط وإنما تجاوز ذلك إلى معرفته بعلم الكيمياء والفلسفة والفلك والرياضيات، والفيزياء[٦]، وقد ترجمت معظم كتب الرازي ومنها: الحاوي والمنصوري إلى اللغات الأوربية، فعرفه الأوربيون وقدروه حق قدره، فيقول عنه سارتون: «وهو دون شك أعظم طبيب أنجبته الحضارة الإسلامية»[٧].

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء/ ٣٧٨-
مونتجمري، فضل الإسلام/ ٥٥.
(٢) هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب/ ٢٤٤.
(٣) مونتجمري واط، فضل الإسلام على الحضارة الغربية / ٥٥-٥٦.
(٤) عبدالمنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية / ٢٥٧.
(٥) عبدالمنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢٥٧.
هونكة، شمس العرب/ ٢٤٥.
(٦) حبنكه، الحضارة الإسلامية/ ١٦٥.
هونكة، شمس العرب/ ٢٤٤.
(٧) الدفاع، الموجز في التراث/ ١١٥-وما بعدها.

وتقول عنه الدكتورة شوارتز هيت وزيرة جمهورية ألمانيا الاتحادية في افتتاح المؤتمر الدولي للبلهارسيا في القاهرة: «إن الغرب لن ينسى أبداً أنه مدين لعلماء المسلمين بدراسة الطب، وإن مؤلفات الزهراوي وابن سينا والرازي كانت هي الكتب الوحيدة التي كانت تدرس في جامعة بالرمو بصقلية التي كانت تضم أشهر مدرسة للطب في العالم الغربي»[1].

كما خصصت جامعة برنستون الأمريكية أفخم جناح لمآثر الطبيب أبي بكر الرازي اعترافاً بجهوده في علم الطب[2].

٢- ابن سينا أبو علي الحسين بن عبدالله بن علي بن سينا (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م)

ويطلق عليه الشيخ الرئيس، ويلقبه البعض أرسطو الإسلام وأبو قراطه، ولد في إحدى قرى خراسان سنة ٣٧١هـ/ ٩٨٠م، عاصر علماء آخرين من علماء المسلمين مثل: البيروني وابن الهيثم.

برز نبوغه منذ صغره في علم الطب وزادت شهرته بعد نجاحه في معالجة حاكم بخارى نوح بن منصور الساماني، فرفع من منزلته وأغدق له العطاء وأقام في بخارى تحت رعايته ودرس فيها القرآن والفقه والحديث، واهتم بعلوم أخرى مثل: الجيولوجيا والكيمياء والفيزياء، وهو أول من استخدم التخدير لإجراء العمليات الجراحية، ووصف الجهاز التنفسي والأمراض العصبية ومرض السرطان والقرحة الدرنية والتهاب الرئة والدماغ والسحايا، ووصف مرض السل وأعضاء الجسم وصفاً دقيقاً، كما وصف ابن سينا السكتة الدماغية وعضلات العين الداخليه واليرقان والعقم[3].

---

(١) عزالدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الغربية/ ١٦١.

(٢) المصدر نفسه/ ١٦١.

(٣) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية/ ١٤٠-١٤٢.
مونتجمري واط، فضل الإسلام على الحضارة الغربية/ ٥٦.

وقد زادت مؤلفات ابن سينا عن مائة وخمسين كتاباً أكثرها في علم الطب وأشهرها كتاب القانون الذي يعد موسوعة ودائرة معارف في علم الطب[١]، وقد قسمه إلى أقسام متنوعة لكافة الأمراض وعلاجها بطريقة منهجية[٢]، وقد ترجمه جيرارد الكريموني إلى اللغة اللاتينية (١١٨٧م) وظل هذا الكتاب يدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السابع عشر الميلادي، وله كتاب الشفاء، الأدوية القلبية وكتب أخرى كثيرة.

٣- ابن النفيس علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي (ت٦٨٦هـ/ ١٢٨٨م): من مواليد دمشق سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م، درس الطب بدمشق مع صديقه ابن أبي أصيبعة صاحب الكتاب المشهور عيون الأنباء في طبقات الأطباء[٣].

ويعد ابن النفيس من عمالقة التشريح في الطب لمعرفة وظائف أعضاء الجسم وخاصةً تشريح القلب والحنجرة، وهو أول من وصف الدورة الدموية في الجسم، وانتقال الدم من القلب إلى سائر أنحاء الجسم والعكس[٤]، كما درس نظريات جالينوس في الطب، واعتمد على ملاحظاته وتجاربه في توضيح الأخطاء التي وقع بها جالينوس، كما درس كتاب القانون لأستاذه ابن سينا وقدم شرحاً عليه في كتاب سماه شرح تشريح القانون، ومن أقواله المعروفة في البحث: «وأما منافع

(١) ميلي، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي / ١٩٧-٢٠٠.
(٢) مونتجمري واط، فضل الإسلام على الحضارة الغربية/ ٥٥-٥٦.
(٣) الدفاع، الموجز في التراث/ ١٨٣.
(٤) عزالدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية ١٥٥.
هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب/ ٢٦٢.

الأشياء فإنما يعتمد في تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أم خالفه»[1].

وقد بلغت مؤلفات ابن النفيس ما يقرب من ثلاثمائة كتاب، وقد رحل من دمشق إلى مصر وهي تحت حكم الكامل بن الملك العادل الأيوبي فعين مديراً للمستشفى المنصوري في القاهرة[2].

ومن الأطباء المشهورين أيضاً عبداللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي (ت٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) ولد ببغداد، وتجول في بلاد الروم ومصر وبلاد الشام طلباً للعلم، والتقى بصلاح الدين الأيوبي بمصر، وألف كتابه المعروف «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بمصر»[3] ومنهم أبو القاسم خلف ابن عباس الزهراوي الأندلسي (ت٤٢٧هـ/ ١٠٣٧م)، أول من نصح برفع الأطراف السفلى عند إجراء العملية الجراحية، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف، مارس التشريح بنفسه وقد وصف ذلك في كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) والذي ترجم إلى اللغة الإنجليزية واقتبس منه أطباء الغرب فيما يتعلق بالجراحة.

وقد نبغ من عائلة الزهراوي في علم الطب أبو الحسن علي بن سليمان، وأبو مروان عبدالملك بن الفقيه محمد بن مروان بن زهر وأفراد آخرون من عائلة زهر الأندلسية[4]، من أمثال أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي، فله الفضل في

(١) الدفاع، الموجز في التراث/ ١٨٣.
(٢) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية/ ١٥٥ وما بعدها.
هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب/ ٢٦٢.
(٣) حجازي، لمحات في تاريخ العلوم الكونية عند المسلمين/ ٢٠٠ وما بعدها.
(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء/ ٤٤٥، ٤٧٤ وما بعدها.

تطوير العمليات الجراحية، وقد استخدم الرسم والتصوير في كتابه المشهور (التصريف لمن عجز عن التأليف)، ويتكون من عشرين جزءاً، ويتعلق كل جزء بناحية معينة في عالم الطب، وقد قال عنه لكلارك أحد علماء النهضة الأوربية: «إنه أول من استعمل ربط الشرايين في إيقاف النزيف، وهو أول من استعمل الحرير في ربطه، وأول من أدخل أوتار العود فيها، وهي مصنوعة من جدار أمعاء الأغنام»[1].

ومن الأطباء أيضاً ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) من مواليد دمشق سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، تلقى الطب على يد ابن البيطار عالم النبات الإسلامي، وقد ألف ابن أبي أصيبعه كتابه المعروف في الطب وعنوانه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء).

ومن الأطباء المشهورين كذلك الكندي، يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس، كان عظيم المنزلة عند خلفاء بني العباس، المأمون والمتوكل والمعتصم، له رسائل كثيرة في علم الطب والحساب والفلسفة[2].

وفي الوقت الذي كانت فيه العلوم الإسلامية تتقدم سريعاً برعاية الخلفاء العباسيين كانت هذه العلوم محظورة وممنوعة في الغرب باعتبارها عملاً إلحادياً تحرمه الكنيسة، وفي حين كان الرازي يصف الأمراض ويضع لها العلاج اللازم ويقول بضرورة الاغتسال والبحث عن نقاء الهواء وطهارة الماء رأت أوربا بهذا القول إثماً وأي إثم وعاراً أي عار؛ فحرمت أقواله كما حرمت من قبل الحركات الجسدية والرياضية[3].

(١) عزالدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية/ ١٤٥-١٤٩.
(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء/ ٢٦٠.
(٣) هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب ١٦٤، ٢٥٠.

ثانياً: الرياضيات.

لم يكن للرياضيات بأجزائها المختلفة قيمة عند العرب قبل الإسلام باستثناء شيء من علم الحساب لضرورته لأهل مكة في مزاولة تجارتهم، ثم زادت هذه الأهمية بعد الإسلام فتطورت فنونه بسرعة البرق لصلتها بأحكام الإسلام في الحسابات الفلكية وحساب الميراث والعمران ومسح أراضي الفتح وتنظيم بيت مال المسلمين في صادراته وارداته بعدما ازدادت الغنائم والفيء والعشور والخراج، وتفرغ الجند للجهاد؛ فتنوعت أعطياتهم وأعدت دواوين الجند وبيت المال وغيرها من الدواوين.

وتعامل العرب مع كتابة الأرقام الحسابية في نظامين هما: الأرقام الغبارية، التي تكتب على الغبار أو الرمل، والأرقام الهوائية بحساب الأرقام في الذهن دون كتابة.

وكانت العمليات الحسابية عند العرب والأمم الأخرى في غاية الصعوبة وغاية التعقيد لعدم وجود الصفر بين هذه الأرقام، إذ إن هذه الأرقام كانت تقف عند العدد ٩ ويبدأ التكرار وإضافة الأرقام الأخرى من جديد ما بين رقم ١-٩، حتى جاء حل هذه المعضلة الكبيرة بإدخال رقم الصفر إلى هذه الأعداد، فأمكن التفريق بينها بسهولة ويُسْرٍ، على يد محمد بن إبراهيم الفزاري في خلافة أبي جعفر المنصور وانتقل استخدامه إلى أوربا إذ لم يكن شائعاً عندهم[1].

ثم ظهر عالم الرياضيات المشهور في بلاط الخليفة المأمون العباسي وهو محمد ابن موسى الخوارزمي (١٦٤-٢٣٥هـ/ ٧٨٠-٨٥٠م) فقام بتطوير الأرقام

(١) عاشور، المدنية الإسلامية/ ٩٨-١٠٠.
الدفاع، الموجز في الراث/ ٦٤.

الحسابية ووضع قواعد ونظريات لحلها، وأوجد نظاماً للكسور العشرية والكسور العادية والجمع والطرح والضرب والقسمة.

والخوارزمي هو أول من أوجد طريقةً لحل المسائل الحسابية المعقدة والتي فيها أكثر من مجهول واحد؛ فأسس علم الجبر لهذا الغرض؛ ووضع فيه كتابه المعروف الجبر والمقابله، واستخدم رموزاً للمجاهيل يمكن بواسطتها حل المسائل التي لا يمكن حلها دون علم الجبر، ثم انتقل علم الجبر إلى أوربا حين قام روبرت الشتري بترجمة كتاب الجبر والمقابلة إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، واعتمد أساتذة الجامعات في أوربا تدريس هذا الكتاب في جامعاتهم[1].

ثم جاء علماء آخرون من علماء المسلمين واصلوا تطوير علمي الحساب والجبر من أمثال: محمد بن أحمد البيروني (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) والبتاني (ت٣١٧هـ/ ٩٢٩م) وأبو الوفاء البوزجاني (ت٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) وأبو بكر محمد بن حسن الكرخي (ت٤١٠هـ/ ١٠١٩م).

ومن العلوم الأخرى في الرياضيات عند المسلمين علم الهندسة، وقد تطور هذا العلم في أواخر القرن الثاني الهجري بعد أن قام المترجمون في مكتبة بغداد بترجمة كتب إقليدس وأرخميدس وبطليموس من السريانية واليونانية إلى اللغة العربية، ومن أشهر هؤلاء المترجمين حنين بن إسحاق (ت٢٥٩/ ٨٦٩م) وثابت بن قرة الحراني (ت٢٨٨هـ/ ٩٠٠م) وسنان بن ثابت، والحجاج بن يوسف بن مطر (ت٢٢٠هـ/ ٨٣٥م) وغيرهم، ثم تداول علماء المسلمين هذه المؤلفات بعد ترجمتها بالبحث والنقد، فأضافوا إليها وعدلوا وصوبوا الكثير من الأخطاء فيها، ومن هؤلاء العلماء ابن الهيثم

(١) سعيد عاشور، المجتمع العربي/ ٤٦٧.

(ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) الذي يقول عنه ابن القفطي: «إنه صاحب التصانيف والتآليف في علم الهندسة... أخذ عنه الناس واستفادوا منه»[١].

ومن أشهر علماء المسلمين في الهندسة أبناء موسى بن شاكر (محمد، أحمد، الحسن) الذين تربوا في خلافة المأمون، فبرعوا في صناعة الآلات مثل: آلات قياس كثافة السوائل وقناديل الإنارة ونافورات المياه وتنظيم الممرات في الحدائق والساعات[٢].

وقام نصير الدين الطوسي (ت٥٧٠هـ/ ١٢٧٤م) بتصحيح نظرية إقليدس فيما يعرف بالحيز الزائد في الهندسة، وأضاف إضافات كثيرة بعد تصحيح كتاب إقليدس بعد ترجمته إلى العربية مثل: نظرية الظل وهندسة الأشكال الكروية والهندسة التحليلية المعروفة بعلمي التفاضل والتكامل.

وفي مجال الميكانيكا وهو ما يطلق عليه علم الحيل في الرياضيات، فقد علل علماء المسلمين الأوائل صعود المياه في العيون والآبار، وبحثوا في كيفية صناعة الآلات واستخراج المعادن وفصلها عن بعضها البعض مثل: الحديد والفضه والنحاس والذهب والكبريت، كما عرفوا صناعة البارود واستخدامه في المدافع، ومن أشهر علماء هذا الفن أبناء موسى بن شاكر وهم: محمد، أحمد، الحسن[٣].

وطور علماء المسلمين علوم الحساب والهندسة إلى علم جديد يعرف بالمثلثات، وهو علم يقوم على الأبعاد والمسافات الطويلة مثل الممرات والطرق

(١) زكريا هاشم، فضل الحضارة/ ٤٧٢.
(٢) هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ١٢٠، ١٣٨-١٣٩.
(٣) انظر: هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب/ ١٢٠ وما بعدها.
عاشور، المدنية الإسلامية/ ١٠٩.

والأبنية الكبيرة، وأوجد علماء هذا الفن مماس الدائرة والظل والجيب والوتر، ومن أشهر علماء هذا الفن ابن الهيثم ونصير الدين الطوسي وأبو عبدالله محمد بن جابر البتاني[1].

ثالثاً: علم الفلك (علم الهيئة)

وهو علم ينظر في حركة الكواكب الثابتة والمتحركة وحركة الأرض[2].

وقد عرف العرب قديماً قبل الإسلام شيئاً عن علم الفلك بما يتصل بالنجوم في معرفة طرقاتهم عبر الصحاري الواسعة، كما عرفوا تغير الجو وحركات الرياح ومواعيد المطر وكانت تسمى عندهم علم الأنواء.

وبعد الإسلام أصبحت حاجة المسلمين ماسة لهذا العلم أكثر مما كانت الحاجة ماسة إليه من قبل عند العرب، إذ أشار القرآن الكريم إلى الكواكب وأهميتها إلى الناس في رحلاتهم التجارية وتنقلهم إلى البدان المختلفة لنشر الإسلام وخدمة الفتوحات الإسلامية وحركة الجيوش، وأصبح لها أهمية كبيرة لخدمة العلوم الأخرى التي ظهرت بعد الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها في ظُلُماتِ البرِ والبحرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآياتِ لقوم يَعْلَمُونَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَعلامَاتٍ وبالنجْمِ هُمْ يَهتَدُونَ﴾[4].

(١) عاشور، المدنية الإسلامية/ ١٠٦.
(٢) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٨٧.
(٣) الأنعام/ ٩٧.
(٤) النحل/ ١٦.

وشجع القرآن الكريم على البحث العلمي والتفكر في ملكوت السماوات والأرض؛ لأن ذلك يقوي إيمان المسلم بخالقه قال تعالى: ﴿أفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كيف خُلِقَتْ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعَت﴾[1].

وقد خص المسلمون علم الفلك بالاهتمام والبحث؛ لأنه يخدم أركان الإسلام في تحديد أوقات الصلاة وتحديد جهة القبلة وفي تحديد أوائل الأشهر العربية لارتباطها بالعبادات، كالحج والصوم وأعياد الفطر والأضحى وما يتعلق بسير الشمس والقمر ونتائج ذلك على حياة الناس، مما يدل على عظمة الله في تدبير مخلوقاته. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عن الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ للناسِ والحج..﴾[2].

ولم يهمل علماء المسلمين ما وجدوه من علوم قديمة كانت عند الأمم الأخرى، فانكبوا عليها بعد ترجمتها بالبحث والدرس للاستفادة منها بتشجيع من الخلفاء، واحتووا على ما عند اليونان والهنود والسريان والروم والفرس، وقد تحمس العرب لعلوم هذه الأمم ودرسوها في بغداد ودمشق والموصل وسمرقند والقاهرة وفارس والقيروان وطليطلة وقرطبة وخاصة كتاب المجسطي المنسوب لبطليموس[3].

كما ربط علماء المسلمين علم الفلك بعلم الحساب لاحتياجه إلى أجهزة وأدوات وجداول رياضية وأزياج فلكية (وسميت بالأزياج لأنها تزاوج بين مذهب الهند والفرس) وما كتبه بطليموس لهذه القياسات الفلكية.

---

(١) الغاشية ١٧-١٨.

(٢) البقرة/ ١٨٩.

(٣) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٨٨.

ولم يقتصر علماء المسلمين على دراسة العلوم القديمة أو نقلها فقط، وإنما قاموا بتصحيح ما فيها من أخطاء، لأنها كانت تعتمد على العقل فقط دون تجارب.

ومن علماء الفلك المشهورين في العصر العباسي الأول محمد بن إبراهيم الفزاري الذي ترجم كتاب السندهند وأطلق عليه حركات النجوم، وكان من المقربين إلى الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور، علاوة على علماء آخرين من الفلكيين ظهروا في خلافة المنصور قاموا بتجارب فلكية، ليعرِّفوه بالجو وحركة الشمس والقمر وعن جذب الأرض وخصبها، ثم جاء عهد البرامكة في خلافة الرشيد فقاموا بخدمات جليلة لعلم الفلك.

ثم تطور هذا العلم في العصر العباسي الأول في خلافة المأمون الذي أمر بإقامة مراصد مختلفة لإجراء قياسات فلكية في كل من الموصل ومراغة وسمرقند والقاهرة ودمشق وطليطلة وفاس وقرطبة.

وقد أثبتت هذه المراصد دقتها في القياسات لخطوط الطول والعرض ومحيط الأرض وحركة دورانها وإثبات كرويتها وتحسين الإسطرلاب (وهي آلة قياس) وآلة الرصد (التليسكوب) وآلة المثقال لمعرفة الأوقات[1].

ومن المشتغلين بعلم الفلك من المسلمين بعد محمد بن إبراهيم الفزاري، الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (١٨٥-٢٥٢هـ/ ٨٠١-٨٦٧م) متصل نسبه بالأشعث بن قيس الكندي من أسرة يمنية، ولد في الكوفة وعاصر الخليفة المأمون، كان بالإضافة إلى معرفته بالطب والرياضيات عالماً فلكياً، وقد ترجم كتب أرسطو وبطليموس لكونه عالماً بالسريانية والفارسية واليونانية.

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٨٨.

وتربى في قصر المأمون ثلاثة من الأخوة كان لهم فضل على علم الفلك وغيره من العلوم الأخرى وهم: محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر، وكلفهم المأمون بالإشراف على المراصد الفلكية، فوضع هؤلاء الأخوة كتاباً في علم الفلك ترجمه فيما بعد إلى اللاتينيه جيرارد الكريموني[1].

وقد وصف أبو الريحان البيروني (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) أبحاث أبناء موسى ابن شاكر فقال: «إني أرى أنه بوسع المرء أن يعتمد على ما قام به أبناء موسى من أبحاث وملاحظات، ذلك أنهم وضعوا في سبيل البحث عن الحقيقة كل قواهم، وكانوا الوحيدين في عصرهم الذين برعوا في طرقهم الفلكية وفي حسن استعمالهم لها، كما أنهم تركوا المجال لغيرهم من العلماء للتحقق من قياساتهم ودقتها»[2].

والبيروني هو أول من قال: إن الشمس ليست هي السبب في تفاوت الليل والنهار بل إن الأرض ذاتها هي التي تدور حول نفسها، وتدور مع الكواكب والنجوم حول الشمس، وقد اعتمد على التجربة والملاحظة في علم الفلك، وله كتاب معروف هو: (الآثار الباقيه من القرون الخالية)، وله مقالتان في علم الفلك هما: (إفراد المقال في أمر الظلال).

ومن علماء الفلك أيضاً محمد بن موسى الخوارزمي (ت٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) عاصر المأمون وكلفه الخليفة بترجمة كتب اليونان في علم الفلك، كما كلفه برحلات فلكية لقياس محيط الأرض وقياسات فلكية أخرى.

(١) هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب/ ١١٨.
(٢) عاشور، المدنية الإسلامية/ ١١٣.

كما قام محمد الفرغاني بأبحاث في تحديد طول السنة وأطوال الليل والنهار وحركات الكواكب والنجوم، وقام أبو جعفر محمد بن جابر البتاني (٢٣٥-٣١٧هـ/ ٨٥٠-٩٧٩م) بتصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها بطليموس ووضع كتاباً في الفلك يسمى (الزيج الصابئ) (جداول فلكية) وهو دائرة معارف ضخمة حدد فيه البتاني تقسيم دائرة الفلك وارتفاع القطب الشمالي ومعرفة زيادة النهار ومعرفة عرض البلدان وارتفاع الشمس ووقت انتصاف النهار ومعرفة ارتفاع الكواكب وأطوال السنة الشمسية وأفلاك القمر والكواكب، وقد ترجم كتابه ألفونسو العاشر ملك قشتالة إلى الإسبانية[١].

ومن علماء الفلك نصير الدين الطوسي محمد بن الحسن (٥٩٧-٦٧٢هـ/ ١٢٠١-١٢٧٤م) كان معاصراً للخليفة المستعصم بالله العباسي آخر الخلفاء العباسيين، وقد أسند إليه إدارة المرصد الفكي بمراغة، كان رياضياً فلكياً يجيد عدة لغات منها: اللاتينية والفارسية والتركية إلى جانب اللغة العربية، وله أكثر من ١٤٥ مؤلفاً في الرياضيات والفلك[٢]، وقد لعبت أبحاث المسلمين في الفلك دوراً مهماً في التقدم العلمي عند الأوربيين[٣]، وكان العرب أول من قالوا بفكرة كروية الأرض، بينما كان الأوربيون يعتقدون أنها مسطحة[٤].

وقد جاء ذكر ذلك في كتاب الإدريسي نزهة المشتاق: «إن الأرض مدورة كتدويرة الكرة».

(١) سيديو، تاريخ العرب العام/ ٣٤١.
الدفاع، الموجز في التراث الإسلامي/ ١٧٦.
(٢) الدفاع، الموجز في التراث الإسلامي/ ١٧٦.
(٣) مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية/ ٥٣.
(٤) زكريا هاشم، فضل الحضارة/ ٤٨٠.

يقول دلاميـر في تاريخ علم الفلك: «إننا إذا أحصينا راصـدين أو ثلاثة من الروم رحنا نعـد كـثـيـرين من العـرب (المسلمين) في هذا الفن مما دل على بعـد غورهم في علم الأفلاك»[1].

ولم يتـأت هذا التـوسع إلا بسـبب مـعـرفـة العـرب في القـيـاس وعلم الرياضـيـات، وقـد أقـام المسلمـون المراصـد الفلكيـة في بغـداد والرقـة ودمـشق والقاهرة وسمرقند وقرطبة وفاس[2].

(١) عبدالرحمن حبنكة، الحضارة الإسلامية/ ١٥٨.
(٢) حبنكة، الحضارة الإسلامية/ ١٦٠.

obeikandl.com

رابعاً: علم الطبيعة.

وهو ما يسميه البعض علم البصريات أو علم الضوء أو الفيزياء، وهو علم يبحث في الأجسام وما يلحقها من حركة وسكون وما يتولد عنها، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحب والبحار والرعد والبرق والصواعق والصوت والنور[1].

وقد أشبع علماء المسلمين كتب اليونان في الطبيعة بحثاً، وحولوها من كتب عقلية فقط إلى علوم عقلية تقوم على البحث وإجراء التجارب، فقرر علماء المسلمين أنه لا يجوز أن يكون في جسم من الأجسام قوة طبيعية تحرك ذلك الجسم بلا نهاية.

وقرروا أنه لكل فعل ردة فعل مساوٍ له في المقدار ومخالف له في الاتجاه، كما عرفوا قوة جذب الأرض والأوزان النوعية وكثافة الماء والهواء، ودرسوا ظواهر المد والجزر والكسوف والخسوف والصوت والبرق والرعد والصدى، وأن الضوء يسبق الصوت، ورؤية الأجسام في العين وألوان الطيف والانعكاس والسقوط ومبدأ العدسات المكبرة وعرفوا خروج الماء من العيون والآبار الارتوازية[2].

وقد وجد علماء المسلمين هذه العلوم في كتب اليونان إلا أنها بعد إجراء البحث والتجارب وجدوا أنها كانت تقوم على أساس خاطئ ولا تستند إلى حقائق علمية، ومن رواد هذا العلم من المسلمين ابن الهيثم محمد بن الحسن بن الهيثم أبو علي (٣٥٤-٤٣٠هـ/ ٩٦٥-١٠٣٩م) من مواليد البصرة، وقد ظهرت براعته وهو

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٤٩٢.

(٢) مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية/ ٥٠ وما بعدها.
وول ديورانت، قصة الحضارة ج٣/ ١٨٦.

صغير السن فثابر على تحصيل العلوم منذ وقت مبكر، فاطلع على كتب إقليدس وبطليموس، وأقام ابن الهيثم نظرياته على البحث والتجارب فأثبت عدم صحة بعض النظريات واستبدلها بنظريات جديدة صحيحة، وهو واضع علم البصريات ومن نظرياته، «إن رؤية الأشياء تتم بخروج شعاع من العين إلى الجسم الذي تبصره، وبهذا تحدث مشاهدة الأشياء» وهذا بخلاف ما جاء في كتب اليونان «اننا نرى الأشياء لأن شبحها أو صورتها تنتقل إلى العين»[1]، وقد أصبحت نظرية ابن الهيثم هي الأساس الذي يقوم عليه علم الضوء.

وابن الهيثم أول من قال: إن كل الأجرام السماوية لها أشعة خاصة ترسلها ما عدا القمر الذي يأخذ نوره من الشمس، واكتشف لأول مرة ظلمة القمر (كسوف القمر) وبين سبب ذلك عندما تنحجب أشعة الشمس عن القمر فيصير مظلماً؛ لأن الأرض أصبحت في وضع بين الشمس والقمر، وفسر بسبب ذلك ظهور القمر في أشكال مختلفة حين يكبر تدريجياً حتى يختفي، كما اكتشف طريقة تصوير الأشياء، وأن النور يسير بخطوط مستقيمة، وهو أول من أجرى تجارب على الظل بواسطة ثقب يمر الضوء منه، واكتشف بعد ذلك آلة التصوير وأن الصور تظهر مقلوبة لأول مرة، كما قام بإجراء عمليات على العين وعرف قانون تأثير الانعكاسات الضوئية واخترع نظارات القراءة والعدسات المقعرة والمحدبة، وفسر ظاهرة قوس قزح[2].

ولابن الهيثم كتاب (المناظير) الذي ترجمه روجر بيكون[3]، وكتاب آخر في طبيعة إلقاء الظل، ورسائل أخرى في علم الضوء والرياضيات تزيد على مائتي مؤلف[4]، ويقول عنه ماكس: «إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى لنا في البصريات».

(١) حبنكة، الحضارة الإسلامية/ ١٦٤.
(٢) هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب/ ١٤٧-١٥٠.
(٣) المصدر نفسه/ ١٤٦.
(٤) الدفاع، الموجز في التراث الإسلامي/ ١٣٦-وما بعدها.

خامساً: الكيمياء:

عرفه ابن خلدون بأنه علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة، بفصل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس، ومزج العناصر وتركيبها، ومنها: صناعة الأدوية[1].

وكان هذا العلم قبل الإسلام سراً من الأسرار، فلا يعرف عنه أحد، حتى إذا قامت للعرب دولة شاسعة بعد الإسلام واقتحم علماء المسلمين مجال البحث وإجراء التجارب ظهر لهم هذا العلم، فهو علم عربي أصيل، وكلمة كيمياء كلمة عربية أصيلة ظهرت منها كلمة Chemistry فيما بعد.

وقد قام هذا العلم على العمل الدائب والإثبات والصبر الطويل للحصول على العناصر والمستحضرات الطبيه ومنها المتفجرات (البارود) والعطور المستخرجة من الزعفران والكافور والأعشاب الأخرى، وصناعة الأقمشة ودبغ الجلود وصناعة الورق والصابون والأصبغة واستحضار الأدوية والكحول، وزيت الزاج (الحامض الكبريتي) وماء الفضة (حامض النيتريك)، وماء الذهب والبوتاس والنشادر والملح والزاج الأخضر (كبريتيد الحديد) والزرنيخ وكلوريد الزئبق وطلاء السفن واستخراج الزيوت من النباتات واستخراج السكر من القصب؛ ونتيجة لذلك فإن أسماء هذه المستحضرات بقيت مقترنه بألفاظها العربية حتى بعد دخولها إلى الاستخدام في اللغات الأخرى.

وقد اعترف علماء الغرب بهذه الحقيقة فيقول علماؤهم: «إنه لولا ما وصل إليه العرب من نتائج واكتشافات لما استطاع لافوازية أن ينتهي إلى اكتشافاته».

---

(١) انظر: ابن خلدون، المقدمة/ ٥٠٤.

وأول من اشتغل بهذا العلم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (ت٨٥هـ/ ٧٠٤م) وكان يسمى حكيم آل مروان.

ومن أشهر علماء العرب في علم الكيمياء جابر بن حيان بن عبدالله الكوفي (١٢٠-١٩٨هـ/ ٧٣٨-٨١٤م) ويطلق عليه أبو الكيمياء؛ لأنه هو الذي وضع الأسس الأولى للبحث العلمي بعد تجارب متواصلة، وله فيه سبعون رسالة[١]. كما يسميه البعض شيخ الكيميائيين العرب.

وينتمي جابر بن حيان إلى إحدى القبائل اليمنية وهي: قبيلة الأزد، هاجر أبوه إلى الكوفه فسكن فيها وعاصر ابنه جابر الخلفاء العباسيين الأوائل وكانت له صلة قوية بهارون الرشيد والبرامكة.

وقد أثارت أولى اكتشافات جابر بن حيان معاصريه حين قام بإعداد الورق الذي لا يحترق، كما توصل إلى صناعة الأدوية، فزادت ثقة الناس به، وهو أول من لاحظ ترسيب كلور الفضة عند إضافة أملاح الطعام إلى نترات الفضة، وتمكن من تحضير كربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم، وتمكن من صناعة الزجاج من ثاني أوكسيد المغنيسيوم، وتمكن من صناعة الصابون والحرير والمفرقعات والأصبغة.

كما استطاع فصل بعض العناصر عن بعضها وتحويل بعض المعادن إلى معادن أخرى، وبحث في السموم فكتب عنها كتاباً أسماه «السموم ودفع مضارها» وله غير ذلك من المؤلفات اثنان وستون كتاباً[٢]. منها كتاب (سر الأسرار) ويتألف من ثلاثة أبواب: الأول في معرفة العقاقير، والثاني عن الآلات، والثالث عن

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٥٠٤.
(٢) انظر هذه المؤلفات: الدفاع، الموجز في التراث/ ٨٦-٨٧.

التجارب والعمليات الكيميائية، وله أيضاً كتاب (الرحمة) وكتاب (التجميع) وكتاب (الزئبق الشرقي) وكتاب (الاستتمام) وكتاب (تركيب الكيمياء)، وقد ترجمت كتبه إلى اللغات الأوربية للاستفادة منها.

ومن العلماء البارزين في علم الكيمياء أيضاً أبو بكر الرازي، فقد وضع كتاباً بهذا العلم بين فيه تحضير الأحماض وتقسيم المواد الكيميائية إلى معدنية ونباتية وحيوانية، ومن المشتغلين بهذا العلم ابن البيطار[1] وأبو عبدالله محمد بن أحمد ابن يوسف الخوارزمي (٣٨٧هـ/ ١٠٠٧م) وباعتراف علماء الغرب، أن العرب أول من استخدم الكيمياء في التطبيب والعلاج.

(١) مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية/ ٥٨-وما بعدها.

obeikandl.com

سادساً:ـ الصيدلية.

علم يتعلق بمعرفة العقاقير واستخراجها من النباتات لمعالجة الأمراض.

وقد اشتغل العرب قديماً قبل الإسلام بالتجارة، فنقلوا صادرات الشرق إلى الغرب والشمال إلى الجنوب وبالعكس، ومن هذه الأنواع التي نقلها العرب الراوند والكافور والصندل والكحول والقرنفل وجوز الطيب والمر والعنبر وغير ذلك من المراهم والأشربة.

ويرتبط علم الصيدلة بالنباتات والطب وصناعة الأدوية والبحث عن استخراجها من الأعشاب، وقد بدأ اهتمام المسلمين بالطب والصيدلة منذ فجر الإسلام، فظهرت مدارس الطب والصيدلة في الأمصار الإسلامية وخاصة في البصرة والكوفة ودمشق والقاهرة وبغداد وقرطبة وطليطلة، وخاصة فيما يتعلق بالمستشفيات المتنقلة التي رافقت الجيوش الإسلامية الفاتحة لمعالجة الجرحى من المجاهدين المسلمين، إذ كانت الأدوية تصرف مجاناً إلى سائر الناس في ميادين القتال والبوادي والقرى والمدن.[1]

ثم تأسست الحوانيت لبيع الأدوية في بداية العصر العباسي الأول في خلافة أبي جعفر المنصور، إذ كان يسمح للصيدلي أن يزاول تحضير الأدوية بعد إجراء اختبار له، كما هو الحال الذي كان يحصل مع الأطباء قبل مزاولة التطبيب.

وقد عرف العرب البنج وأثره في تخدير الأجسام وأجروا ذلك على الحيوانات قبل استخدامه على المرضى.

---

(١) الدفاع، الموجز في التراث/ ٣٠-وما بعدها.

ومن أوائل المشتغلين في هذا المجال حكيم آل مروان خالد بن يزيد بن معاوية إذ تفرغ لترجمة العلوم السابقة والاهتمام بالعلوم وخاصة علوم الطب والصيدلة والكيمياء.

ومن أشهر صيادلة المسلمين ابن سينا، فقد كتب كتباً في الأدوية وكيفية استخراجها من النباتات، كما كتب ابن الهيثم والبيروني كتباً أخرى في الصيدلة، والرازي له كتب في الأدوية منها كتاب (المنصوري) وكتاب (الأدوية).

ومن الأطباء المشهورين في علم الطب والاهتمام بالأدوية ابن البيطار (٥٩٤-٦٤٦هـ/ ١١٩٧-١٢٤٨م) إذ طاف البلدان وتعرف على النباتات بالمشاهدة والنظر وإجراء التجارب عليها، وقسمها إلى أقسام متعددة في كتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية).

ومن علماء الصيدلة أيضاً الزهراوي(ت٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) وله كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) في الأدوية، وصف فيه الأغذية والأشربة والضمادات والمراهم، وكذلك أحمد بن محمد بن السيد الغافقي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)من أكابر علماء الصيدلة في الأندلس، وقد تنقل في البلدان لمعرفة النباتات وأسمائها ومنافعها، وله كتاب بهذا أسماه الأدوية المفردة.

كما أن رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي الصوري (ت٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) نسبة إلى مدينة صور على ساحل لبنان التي ولد فيها، تنقل في البلدان وخاصة فلسطين ومصر للبحث عن النباتات واستخراج الأدوية منها بالمشاهدة وبالتحقق من فوائدها، وأقام بمصر في عهدالملك العادل الأيوبي، وله من الكتب كتاب الأدوية المفردة.

سابعاً: الرحلات التجارية والجغرافيا.

اهتم العرب بالتجارة، وكانت مكة محور تجارة العرب والبلدان المجاورة ومركز توزيع هذه التجارة وما تنتجه هذه البلدان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بنقل هذه من هنا إلى هناك، وكان لأهل مكة تجارتان في السنة في الشتاء والصيف كما وصفها القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ **لإِيلاَفِ قُرَيشٍ إِلاَفِهِم رِحْلَةَ الشتاءِ والصيفِ فَلْيَعْبُدوا ربَّ هذا البيتِ الذي أطعَمَهُم من جوعٍ وآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ** ﴾[1].

وهذا ما جعل العرب وسطاء تجاريين بين الشعوب المختلفة، وهي مظهر من مظاهر حياتهم قبل الإسلام.

ولم يكن للعرب قبل الإسلام نقود عربية يتعاملون بها، وإنما كانوا يتعاملون الأعيان بالأعيان، ونقودهم دينار الروم ودراهم الفرس[2].

ومن هنا نرى أن العرب كانت لديهم معارف بركوب البحر ومعارف بطرق الصحارى في الجزيرة العربية المؤدية إلى الهند شرقاً وإلى فارس وبلاد الشام شمالاً ومعارف بمناخ وتضاريس هذه البلاد وجبالها وسهولها وعادات شعوبها وما تنتجه من محاصيل وصناعات؛ لأنهم نقلوها من بلاد إلى بلاد من خلال التجارة.

ومن هذه الطرق التي سلكها تجار العرب طريق العراق إلى الصين وطريق الإسكندرية إلى المغرب، ومن المغرب إلى نيجيريا ومن البصرة (كانت تسمى قبل الإسلام الأبلّة أو فرج الهند) إلى الهند والصين، ومن العراق إلى خراسان إلى جرجان إلى بلاد الروس، والطريق البري من الشام إلى مصر.

---

(١) سورة قريش/ ١-٤.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان/ ٤٧١.

وبعد الإسلام امتزجت رغبة العرب بالتجارة وطلب الرحلة بدافع الجهاد ونشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ونقل تعاليم الإسلام إلى بلاد بعيدة لم تصلها جيوش الفتح مثل: جنوب شرق آسيا وسيبيريا والصين والهند شمالاً وشرقاً إلى بلاد أخرى، وكذلك إلى شمال أوربا وأواسط إفريقية.

وقد ساعدهم على ذلك بناء الأساطيل البحرية الإسلامية على شواطئ الشام ومصر وإفريقية والأندلس منذ خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فزادت خبرات العرب بالبلدان وما فيها من بحار وأنهار وجبال وسهول وصحاري ومناخات مختلفة وعادات شعوبها وغاباتها، وكان الخلفاء حريصين على أن يعرفوا من قادة الجيوش عن طبيعة البلاد التي كانوا يتوجهون إليها بوصفها لهم وصفاً دقيقاً كأنهم ينظرون إليها.

وقد برز في الدولة الإسلامية علماء مهتمون بعلم الجغرافيا كسائر العلوم الأخرى، فقام هؤلاء العلماء بترجمة علوم الجغرافيا عن اليونان، وخاصةً كتاب (المجسطي) لبطليموس، وصححوا ما فيها من أخطاء مثل: تحديد طول البحار وتصحيح ما قيل عن بعض المحيطات أنها بحار مغلقة، وقد ألف الخوارزمي وهو أحد علماء المسلمين كتاباً في الجغرافيا وصف فيه البقاع معتمداً على كتاب بطليموس[1].

ومما شجع الجغرافيين المسلمين على البحث في مجال الجغرافيا ما وجدوه في القرآن الكريم من آيات تحض على البحث في هذا المجال كقوله تعالى: ﴿ **وَأَلْقَى فِي الأَرضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُم وأَنْهَاراً وسُبُلاً لَعَلكُم تَهتَدُون. وعَلاَمَاتٍ وبالنجمِ هُمْ يَهتَدُون** ﴾[2].

(١) مونتجمري واط، فضل الإسلام على الحضارة الغربية/ ٥٠.
(٢) النحل/ ١٥-١٦.

وكان رواد الرحلة من المسلمين هم أوائل المكتشفين الذي طافوا بلدان العالم ودونوا ملاحظاتهم الواسعة في موساعات علمية ضخمة أفادت علم الجغرافيا كثيراً، ومن هؤلاء الرحالة ابن بطوطة شمس الدين محمد عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي من مدينة طنجة بالمغرب (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) طاف من طنجة إلى الشرق حول إفريقيه ووصل الهند والصين وجزر الملايو، ثم عاد إلى بلاده بعد رحلة دامت ثلاثين عاماً، ووضع موسوعة جغرافية عما رآه في رحلته من عادات الشعوب وبيئات البلدان ومناخها وتضاريسها، وقد ترجم الأوربيون هذه الموسوعة الضخمة للاستفادة منها فيقول الرحالة الأوربي سيزن عنها: «أي سائح أوربي يمكنه أن يفاخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول»، ويقول عنه المستشرق كراتشوفسكي: «لا يستغني عن الرجوع إليه أي باحث يود الخوض في تاريخ الهند وآسيا الوسطى، والذي بالرغم من هذا تقف رواياته عن الصين والهند في مستوى واحد، وهو آخر جغرافي إسلامي عالمي من الناحية العملية، وقد قطع في رحلته ٧٥,٠٠٠ ميل، فهو يعد بهذا منافساً خطيراً لمعاصره الرحالة الأشهر ماركوبولو البندقي، بل إن وصف ابن بطوطة لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة من ماركوبولو، وقد كان لديه إحساس ذاتي بظروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر مما كان لدى زميله ومعاصره».

ويقول عنه المستشرق الإيطالي دوزي: «ابن بطوطة هو الرحالة الصادق الأمين».

ومن الرحالة الجغرافيين الملاح شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي النجدي الملقب بأسد البحر (ولد سنة ٩٠٤هـ/ ١٥٣٦م) ويعده الكثيرون أنه مخترع البوصلة، وهو الذي قاد سفينة فاسكودي جاما البرتغالي عبر المحيط الهندي، وهو

الذي أرشده للوصول إلى الهند[1]، وله كتابان أولهما عن الملاحة والبوصلة وثانيهما عن منازل القمر والجهات التي تهب منها الرياح.

ومن الجغرافيين المسلمين الشريف الإدريسي محمد بن أحمد بن عبدالله بن إدريس (٤٩٣-٥٦٠هـ/ ١٠٩٩-١١٦٥م) ولد بثغر سبتة المغربية، ثم رحل إلى قرطبة ثم إلى المغرب فإلى صقلية حين دعاه إليها حاكمها النورماندي الملك روجر الثاني، وكانت لا تزال مزدهرة بحضارة المسلمين، فأعجب روجر الثاني بثقافة الشريف الإدريسي الواسعة فطلب منه أن يؤلف له كتاباً في علم الجغرافيا، فكتب له كتابه المعروف -(نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق)- ويحتوي هذا الكتاب على خرائط جغرافية منها: صورة الأرض على شكل الكرة، وذكر في كتابه إن الأرض كروية: «إنها مدورة كتدويرة الكرة، والماء لاصق بها وراكد ركوداً طبيعياً لا يفارقها، والأرض والماء مستقران في جوف الفلك كالمحَّة في جوف البيضة ووضعهما وضع متوسط، والنسيم محيط بها من جميع جهاتها وهو جاذب لهما إلى جهة الفلك».

كما وصف في كتابه منابع نهر النيل، وعادات الشعوب وتقاليدهم.

ومن كتبه المسالك والممالك أيضاً، وقد قال غوتيه عنه: «إن الشريف الإدريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا الذي علَّم أوربا هذا العلم، لا بطليموس، ودام معلماً لها ثلاثة قرون، ولم يكن لأوربا مصور للعالم إلا ما رسمه الإدريسي، وهو خلاصة علوم العرب (المسلمين) في هذا الفن، ولم يقع الإدريسي في الأغلاط التي وقع فيها بطليموس في هذا الباب»[2].

(١) الدفاع، الموجز/ ٤٢.

(٢) عبدالرحمن حبنكة، الحضارة الإسلامية/ ١٥٧.

ومن هؤلاء أيضاً ابن حوقل (ت٣٨٧هـ/ ٩٧٧م) الرحالة المشهور، حيث قام برحلة استغرقت حوالي ثلاثين سنة، ثم كتب كتابه المشهور صورة الأرض (المسالك والممالك).

ومن الجغرافيين أيضاً المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) طاف العالم في رحلة دامت حوالي خمسة وعشرين عاماً، سجل فيها مشاهداته في وصف الجبال والبحار والممالك وعادات الشعوب ونحلهم، وعن ظاهرتي المد والجزر، وسجلها في كتابه المشهور (مروج الذهب ومعادن الجوهر) ومن هؤلاء العلماء أيضاً ابن خرداذبه (ت٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) وله كتاب (المسالك والممالك) ضمن فيه طرق البحار المؤدية إلى الصين والهند.

وكذلك المقدسي شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد (ت٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) أنفق على أسفاره من ماله الخاص، وألف كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وخص بالذكر من هذه الأقاليم الأقاليم الإسلامية، فوصف سطح الأرض والأقاليم والأقسام السياسية والطرق والمسافات والأنهار والجبال والصحاري، كما ضمن كتابه خريطة لهذه الأقاليم بألوان مختلفة.

ومن علماء الجغرافيا البكري عبدالله بن عبدالعزيز (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) وله كتاب (معجم ما استعجم)، والحموي، شهاب الدين ياقوت (ت٦٣٠/ ١٢٣٢م) وله كتاب (معجم البلدان)، وأبو الفداء عماد الدين إسماعيل صاحب حماة (ت٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) صاحب كتاب (تقويم البدان).

ونتيجة لطواف الرحالة المسلمين في البلدان والأقطار تركوا عملات إسلامية في تلك البلاد البعيدة في القرون الهجرية الأولى مما يدل على نشاطهم الواسع في تلك البلاد[1].

كما تركوا آثاراً علمية هائلةً وبقيت المصطلحات العربية الجغرافية في موسوعات الغرب بعد ترجمة كتب الجغرافيين المسلمين مثل: حوالة Avala، شيك Chek، بازار Bazar، دينار Dinar، تعريفه Tarifa، ديوان Deuanne، أمير البحر Admeral، طرح السفينه Tare، دار الصناعة Arsenal، الفلك Felouque.

(١) عاشور، المدنية الإسلامية/ ١١٨.

obeikandl.com

ثامناً: علم النبات

وهذا جانب آخر من العلوم الإسلامية التي وجدت اهتماماً كبيراً من علماء المسلمين بالبحث العلمي عن عالم النباتات وأنواع الأشجار ومنابتها وفوائدها، وخاصة في مجال الطب وتحضير الأدوية منها، كما بحث علماء النبات في أجزاء النباتات وأزهارها وثمارها وأوراقها وتطوير الري وتجميل الحدائق.

وفي مقدمة علماء النباتات ابن البيطار أبو محمد عبدالله بن أحمد ضياء الدين الأندلسي والملقب بالعشاب (٥٩٣-٦٤٦هـ/ ١١٩٧-١٢٤٩م) من مواليد مالقة على ساحل الأندلس، له شهرة واسعة بعلم النباتات والعقاقير، رحل من الأندلس إلى المغرب ومصر وآسيا الصغرى واليونان وبلاد الشام للبحث والتنقيب وإجراء التجارب على الأعشاب اتسمت بالدقة والأمانة والصدق، وتوصل إلى نتائج هامة في عالم الطب والصيدلة.

استقر في مصر في عهد الكامل الأيوبي وابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان رئيس العشابين وعميداً للصيدلة، فيها ثم انتقل إلى الشام لمواصلة البحث والتنقيب في عالم النباتات، والتقى بدمشق مع ابن النفيس وابن أبي أصيبعه واستفاد منهما معلومات تتعلق بالطب[1].

له من الكتب: كتاب الجامع في الأدوية المفردة، وكتاب (المغني في الأدوية المفردة) وكتاب (الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام)، وكتاب (ميزان الطبيب).

(١) هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب/ ٣٢٢.

ومن العلماء الآخرين أبو حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) وله كتاب مخطوط في مكتبة الجامعة بإستانبول يقع في ٣٣٣ صفحة بين فيه أصناف النباتات وأزهارها وثمارها وأوراقها وصفاتها واستعمالاتها وأزهارها وأماكن نموها، وعرف نبات الأراك ومنابته في بطون الأودية ونبات الأسحل ومنابته وفوائده، ونبات الآسى والأقحوان والحسك والدباء، وقد استفاد من مخطوطته كثير من الأطباء والعشابين[1]. وهناك عالم آخر في عالم النبات هو الشريف الإدريسي، فقد كان له اهتمام بالنباتات بجانب اهتماماته بعلم الجغرافيا، وله كتاب (الجامع لصفات النبات) وصف فيه الأشجار وأوراقها وكيف تستفيد عن طريقها من أشعة الشمس.

ومن العلماء الذين اهتموا بعلم النبات أيضاً ابن سينا بجانب اهتمامه بعلم الطب والصيدلة، فقد أجرى دراسات على النباتات وجذورها وأوراقها المتشابهة وغير المتشابهة.

(١) الدفاع، الموجز في التراث/ ٣٨.